منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

جائزة
على جائزة
أبو القاسم الشابي
تونس
2002

www.mlazna.com

هيفاء بيطار

الساقطة

قصص قصيرة

www.mlazna.com-رياح الشرق

الساقطة

قصص قصيرة

هيفاء بيطار

• روائية من سورية

أخبرته أخيراً أنها حامل، اكفهر وجهه وقال وهو ينظر إليها باشمئزاز: مصيبة، لم يعلق بكلمة أخرى، فكرت أن قمة سعادتها يعتبره قمة تعاسته، لم تجرو أمام تجهمه أن تقترح لو يتزوجها ثم يطلقها بعد شهر، قال لها بعد فترة صمت ثقيلة: عجيب أن تحملي في هذه السن، تلقى قلبها الطعنة وهو أعزل تماماً، أردف: يجب أن تتخلصي من هذه المصيبة بسرعة.

طوّقت عنقه بقوة كالضحية التي تستنجد بجلادها في لحظة موتها الأخيرة، قالت: معك حق، لكن تصور لو كان لنا طفل، ترى من سيشبه؟

لوحة الغلاف:
Edouard Manet, Bertha Morisot-stage 4
تصميم الغلاف: سامح خلف

• صدر للمؤلفة أيضاً:

ISBN 978-9953-87-943-7
9 789953 879437

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
هاتف: 1676179 2 (213+)
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.nwf.com - www.neelwafurat.com

www.mlazna.com-رياح الشرق

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-943-7

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الإهـداء

إلى أختي الحبيبة

سلمى

مرآة روحي

الجزائر العاصمة

في: [illegible]

رياح الشرق-www.mlazna.com

المحتويات

الصرخة 9
شطارة 21
نوبة ربو... نوبة حب 35
صعقة الحب 43
صفير النهاية 53
الساقطة 59
حرمة القرارات 71
على شفير الهاوية 93
حلم مستملك 111
حوار إنساني 117
صديقي التمساح 123
حب على حافة الحياة 131
تحقيق الذات 139
تسوق خاص 149

الصرخة

ليس من فضاء في هذه المدينة سوى البحر، وحده يحول نار الحقد والقهر في روحها إلى رماد، وأمام مداه اللامتناهي تحس بتفاهة الآلام كلها، البحر وحده يخلق لها هامشاً من الحياة تعيش فيه حياةً لا قهر فيها ولا نفاق.. أمامه تعرض ندوب روحها، انحسارها المستمر تجاه زمن يعطي الأولوية للكلاب والمنافقين، وحين تتأمل بلا ملل مداعبة الموج لصخور الشاطئ تشعر أن روحها تغسل من القنوط شيئاً فشيئاً، ومرة تلو مرة.

قفص يطل على البحر، هذه هي مدينتها، لا شيء على الإطلاق تفعله في هذه المدينة سوى تأمل البحر وتدخين الأركيلة، وتذويب أحزانها بعدة فناجين من القهوة، كل شيء يغرق في الكسل والضباب والتشتت، فهي غير قادرة على التركيز إطلاقاً، فما إن تبدأ بالتفكير حتى تتشعب الفكرة ثم تضيع، تلاحقها بلا جدوى ليغرق ذهنها مجدداً في الضباب، لكن ما يدهشها حقاً حالة الاستعجال التي تعيشها، فهي تستعجل نهارها ليمضي سريعاً، وما إن يحل الليل حتى تستعجله بدوره ليمضي بانتظار الفجر.

ما إن تنتهي من تناول إفطارها حتى تنتظر الغداء بفارغ الصبر، وبعده تنتظر العشاء، ثم المسلسل اليومي الذي تتكهن بكل أحداثه سلفاً، ترى لِمَ تستعجل الحياة هكذا، كأنها في سعي إلى هدف

www.mlazna.com-رياح الشرق

عظيم!

أحضر لها النادل الأركيلة وفنجان القهوة، وضع جمرتين فوق القرص المغطى بورق السلفان، انتظرها حتى سحبت نفساً وأطلقت الدخان من فمها، شكرته، فمضى متمنياً لها جلسة لطيفة.. متعتها الوحيدة في الحياة هي نفث دخان الأركيلة، تشعر أنها تطلق بخار همومها المحتبس في روحها على دفعات، فكرت أن الأركيلة هي القاسم المشترك بين الناس في هذه المدينة من المراهقين وحتى الشيوخ، وأن هذا الشعب بمعظمه لا يفعل شيئاً سوى تدخين الأركيلة لساعات كل يوم!

مرت بجانبها قطة عوراء، عينها اليمنى قطعة بياض كزلال البيض المتجمد، رمقتها القطة بعين وحيدة، أحست نحوها بحقد، لأنها رأت نفسها في هذه القطة المعطوبة، لقد عطبها الزمن، وآمنت أن هذه القطة اختارتها من بين الناس كلهم ووقفت قبالتها، لتكون مرآتها وتريها حقيقتها، أجل إنها معطوبة تماماً مثل هذه القطة، وعطب الروح أصعب من عطب الجسد، لم تتحرك القطة رغم زجرها الشديد لها، حتى اضطرت أن تلوِّح بحقيبة يدها مهددة بالضرب ففرت القطة هاربة، لاحظت أن هناك ندبة عميقة في خاصرة المسكينة وأن ذنبها مقطوع، لعلها تعرضت لطعنة سكين واعتداء، احتقرت قسوتها وساديتها، وفكرت أنها تتعامل دوماً بتشفٍ واحتقار مع الضعفاء والمساكين أمثالها، وبدل أن تشعر بتعاطفٍ مع المسحوقين، فإنها تحس بكرهٍ وشماتة نحوهم، أجل، لتعترف بهذه الحقيقة، وأكبر مثالٍ عليها غرفة العوانس - كما تسميها - هي وصديقاتها.

سمعت صوت ضحكات صافية تشق صوت البحر، غير بعيد

عنها كان صبية في عمر المراهقة يسبحون غير مبالين ببرد شباط، ربما السباحة هي المتعة الوحيدة التي لا تكلفهم مالاً، تأملتهم كيف يتريضون مقاومين البرد، وكيف يتدافعون ثم يلقون بأجسادهم في الماء البارد مطلقين صرخات نشوة، متجاهلين أنه غير بعيد عنهم يصب المجرور، هي نفسها تتجاهل الرائحة القذرة معطية روحها كلها للبحر.

أحست بشفقةٍ وبشيءٍ من الفرح حين فكرت أن هؤلاء المساكين قادرون على الفرح رغم القهر والموات حولهم، فكرت وهي تسحب نفساً عميقاً من الدخان أنها لو خيرت أن تبعث في الحياة مرة ثانية لاختارت أن تكون سمكةً سيكون البحر عالمها، لكن قد يصطادها صياد ويقتلها بسادية، ترى ما سبب عدوانية البشر؟ لماذا تلك الفظائع والمجازر التي ترتكب كلها؟

صفعتها ذاكرتها بصورة لا يمكن نسيانها لطفل عمره شهر قتله الإرهابيون، شقوا صدره ووضعوا قلبه في فمه! يوم تأملت تلك الصورة فكرت جدياً أن تقتل نفسها، لأنها قرفت من الحياة والعار الذي يجللها من خلال هذه الصورة، حانت منها التفاتة لترى أناساً يأكلون، رجل وثلاث نساء وأطفال يتحلقون حول طبق مملوء بالبطاطا المسلوقة وقطع البندورة، هم الإنسان الأبدي الطعام... عادت تفكر بشلة العوانس، وتحس بشفقةٍ لتلك الشلة المكونة من ست آنسات جامعيات في غرفة واحدة، ليمارسن وظيفة وهمية، لا يتطلب العمل الفعلي فيها عشر دقائق؟!

لم تتزوج أي منهن، بقين عشرين عاماً محنطات في تفاهة الوظيفة والمكوث الإجباري ثماني ساعات كان يوم في غرفة اهترأ أثاثها كما اهترأت أرواحهن، كان محور حديثهن الرجل بما يحف

بذكره من نكاتٍ جنسية وإيماءات تدل على كبت شديد، هالتها تلك الحقيقة وهي تتأمل البحر الذي أشعرها للمرة الأولى بتفاهتها واحتقاره لها، كل صباح كن يجتمعن حول القهوة، يكفي أن تلتقي عيونهن لترى كل واحدة حرمانها في عيون صديقاتها، كانت كل منهن تعرف كم يسحقهن مفهوم الشرف سحق حشرة، يضطررن مرغمات ودون ذرة قناعة أن يحافظن على عذريتهن التي تعني حكماً الشرف، ويدافعن عنها حتى حدود الاستبسال، وهن يتمنين في العمق نسف تلك القيمة التي لا تعني لهن سوى السجن بلا ذنب!

لسنوات طويلة حاولتْ حل لغز التعنيس، كيف لم تتزوج هي وصديقاتها؟ بل لِمَ ينتشر التعنيس بين الشباب والشابات؟! فرغم كونها وصديقاتها جامعيات ومن أسرٍ محافظة، ولم يخرجن عن العقلية المتعارف عليها، لم يدخلن قفص الزواج. لكنها حين بدأت تفكير بالأرقام فهمت أن الفقر هو السبب، فالراتب بعد عشرين سنة من الوظيفة يقل عن مئة دولار! صار الزواج معجزة، فالظروف المادية خانقة، كانت العلاقة بين العوانس الست ملتبسة للغاية، إذ تتجمع فيها الأضداد، حب وكره، حقد وشفقة، غيرة وتعاطف، كانت كلٌ منهن تشعر أن حزنها بالتفاعل مع حزن صديقاتها يحمل شيئاً من الفرح، كل منهن تحس حين تنظر في عيون صديقاتها بذلك الأسى الخاوي الذي يجلل الروح، وكن يعرفن - دون أن تبوح الواحدة لزميلاتها - طعم ذلك الدمع الداخلي الذي يذرفنه على مصيرهن المفقود وعلى الأمومة الجريحة، كانت كل منهن تكره صديقاتها لأنهن يجسدن لها فشلها، وحرمانها العاطفي والجنسي وقهرها المادي، كلهن يشتركن في صفة هي الإكثار

من مواد التجميل، إنها تعرف الآن وهي تتأمل البحر اللامتناهي بكبرياء زرقته أن الإكثار من استعمال مواد التجميل اعتراف صريح بالهزيمة، هزيمتها تجاه الشباب، الشفاه المرسومة بدقة بقلم تحديد الشفاه، وأحمر الشفاه الكثيف الدهني دليل جوع دفين للقبلة.

كانت شلة العوانس تشعر بحقد أعمى تجاه المتزوجات، وكان منظر امرأة حاملاً يكفي لبلبلتهن ساعات، وكل منهن تعمد في لحظات الألم الحرجة إلى وضع وسادة تحت ثيابهن والتفرج على أنفسهن في المرآة كما لو كن حوامل! وأكثر ما كان يسعدهن أخبار الطلاق والخيانات الزوجية وإنجاب أطفال معوقين.

قاومن بشراسة إغواء الرجل حتى الخامسة والثلاثين، وبعد هذا الصبر المديد طوَّحن بعذريتهن كيفما اتفق، دون أن تعترف أي منهن لصديقاتها أنها خاضت تجربة الجسد وحصدت المرارة، وطعم الخواء والرماد.

تنبهت أن النادل يقف بجانبها يتفقد جمرات الأركيلة، نفض عنها الرماد، وغير جمرة واحدة فقط، فكرت أن روحها مثل الجمرة تماماً ملتهبة من الداخل، ومن الخارج رماد. فجأة احتشدت بذهنها جمهرة من الذكريات وخنقتها، حاولت طردها ولكن عبثاً، ورغم تلذذها بالأركيلة ومتعتها بتأمل البحر، فإنها أحست بفوران غضبها العميق، لدرجة أوشكت على التلعثم من شدة الغضب، ارتعشت وهي تسحب الدخان فهزتها نوبة سعال قوية، أطبق على البحر شيء مأساوي فلم يعد مريحاً لنظرها، مرت أمام ناظريها وجوه الناس الذين اختارهم لها القدر أهلاً وأصحاباً، ياه! إنهم يميتونني موتاً محفوفاً بأطيب النوايا.

أجل هذه هي الحقيقة، كررت تلك الجملة مفتتنة ببلاغتها

www.mlazna.com-رياح الشرق

وفي رقبته رسن يربطه بخمسة أفواه، كان في عمرها، رجل وسيم صقلته المعاناة، لم يعدها يوماً بالزواج، وإذا كان اليأس والرغبة بالتخلص من سجن العذرية قد قادها في البداية للقائه في شقة يملكها صاحبه، فإن الحب شنّ عليها زوبعة لا تقاوم بعد اللقاءات الأولى، كانت تهمس لنفسها مبهورة باكتشافاتها المتأخرة: أهذا هو الرجل، إنه رائع حقاً؟!

بدت لها سنوات عمرها كسرابٍ، صارت تمارس بوحشية رياضة شدّ الصدر، وباعت خاتمي الذهب لتشتري أفضل أنواع كريمات العناية بالبشرة والمقاومة للتجاعيد، ثم لم تبالِ بآلام كتفيها من مبالغتها في رياضة شدّ الصدر، تمنت لو عرف نهديها وهي في العشرين، وليس وهي على أعتاب الثالثة والأربعين، بدا لها الحرمان العاطفي والجنسي جريمة تعادل جريمة القتل، بل تفوقها وحشية لأنها تتم تحت حماية قوانين، ورعاية عقلية متوارثة جيلاً بعد جيل، لم تعد تذكر أين قرأت أن قمع الغرائز الجنسية يجعل الإنسان ينحرف، هل قرأت تلك الفكرة في كتاب لويلهن رايش؟ لا تذكر تماماً، ربما فائدة الحرمان كونه جعلها فأرة كتب، تقرأ، وتقرأ، لكنها قراءة اضطرارية بسبب غياب الرجل.

خططها كلها لإنقاص وزنها كانت تفشل، ما عدا الحب الذي خلق في نفسها شهية الجمال والمتعة، لم يفهم أحد ممن حولها سر تفجر جمال العانس، وتألق عينيها، صدرها الذي استعاد كرامته وشمخ إلى الأعلى، لم يكن يهمها أن تعرف إلى أي حد يحبها، بل كانت تخشى أن تحرجه بالأسئلة لتكتشف أنه لا يحبها، بل يستعملها كمسكّن في جحيم ظروفه، كانت المتطلبات المادية لأسرته تذله، وجدت نفسها معنية بأولاده تشتري لهم الهدايا،

غضت النظر كونه لم يقدم لها هدية واحدة، كانت تحتاج إلى أن تبرر له كي تستمر في لعبة الحب، إنها تعمي نفسها عامدة عن سماع صوت العقل لتنصت لوجيب قلبها، عليها أن تعيش السعادة الأخيرة وتتذوقها بنهم قبل أن تسقط في هوة الشيخوخة، كم تحتاج أن تحس بسخونة اللحم وارتعاشته، وتنصت لهدير النشوة في الدم، لا تنسى نظرة الدهشة في عينيه حين اكتشف أنها عذراء، سمعت صوته دون أن ينطق بكلمة واحدة:

- والله أنت بطلة، كيف حافظت على عذريتك حتى الثالثة والأربعين؟

تمنت لو تقول له إنها حافظت عليها لأجله، وإنها سعيدة كونها أهدت إليه عذريتها، لكن رائحة الكذب ستفوح قوية لو قالت هذا الكلام، أسعدها أن علاقتها معه خلصتها من شعورها بالضآلة، ليس مثل الحب وذلك العزف الحميم الذي يقوم به جسد عاشق قادر على جعل الإنسان يحس بكرامة جسده وروحه، كانا عارفين أن كلاً منهما هروب للآخر، وواحته الخضراء في صحراء الواقع القاسية، كان كل شيء يمكن أن يستمر حيوياً، مشبعاً بالنشوة لو لم تلاحظ أنها غدت لا تطيق طعم القهوة، وتنام بعمق شديد وتستيقظ وحالة من الغثيان تعصف بأحشائها، هوى قلبها فزعاً وهي تدرك أنها حامل، أكد لها الفحص بالشريط الكاشف للحمل مخاوفها، ثمة ملاحظة على علبة الشريط: خط واحد لا حمل، خطان يعني الحمل.

غمست بيد مرتجفة الشريط بعينة من بولها، ظهر خط واحد، تعلق به قلبها، لكن سرعان ما ارتسم الخط الثاني قربه، انصهر قلبها بين الخطين الحمراوين، الأحمر علامة الخطر دوماً، ترددت

أن تصارحه أنها حامل، تخيلت غضبه ودفعه لها بقسوة للتخلص من تلك الورطة، إنها تعرف أنه لم يفكر بها أبداً كزوجة، تذكرت أنه نادراً ما يقول لها أحبك، يقولها خجلاً في لحظات وصالهما الحميم، لكن لتعترف أنه لم يكذب عليها، فهي التي أرادت أن تقتحم عالم الرجل قبل أن يفوت الأوان.

خافت أن تحب هذه الحياة النابضة في أحشائها، خافت أن تطوح بالميراث الضخم الذي ورثته عن أهلها جيلاً بعد جيل، حول مفاهيم الشرف والعفة، تخيلت نظراتهم ترجمها: يا آثمةً أين نضجك وفهمك، أتفرطين بشرفك وتحملين بابن الزنى؟!!

لكنها رغم حملها الآثم كانت سعيدة، إنها ليست الأرض البور، رحمها الذي يسفح دماً كل شهر متألماً من حرمانه الأمومة، حقق ذاته وحمل أخيراً، برافو حملت، برافو حملت، هذا ما ستقوله لنفسها عذراء الثالثة والأربعين. ياه!! ما أروع أن تنجب طفلاً، لِمَ لا تستطيع الاحتفاظ به؟ لو كانت في أوروبا لأنجبته مرفوعة الرأس، هناك المرأة يحق لها أن تختار الرجل أو الطفل، تظل محترمة في الحالتين، تأملت الفراغ حولها بنظراتٍ منكسرة كأنها ترجوهم أن يسمحوا لها بالاحتفاظ بالطفل. سيكون سعادتي وسندي ما تبقى لي من عمر، سيكون الصغير دنياها وهدفها. كانت تشعر أن هذه الروح الخافقة في أحشائها تجعل كل شيء في روحها ممتلئاً بالتوتر الحساس، مشعاً، مضيئاً.

أخبرته أخيراً أنها حامل، اكفهر وجهه وقال وهو ينظر إليها باشمئزاز: مصيبة، لم يعلق بكلمة أخرى، فكرت أن قمة سعادتها يعتبره قمة تعاسته، لم تجرؤ أمام تجهمه أن تقترح لو يتزوجها ثم يطلقها بعد شهر، قال لها بعد فترة صمت ثقيلة: عجيب أن تحملي

www.mlazna.com-رياح الشرق

في هذه السن، تلقى قلبها الطعنة وهو أعزل تماماً، أردف: يجب أن تتخلصي من هذه المصيبة بسرعة.

طوّقت عنقه بقوة كالضحية التي تستنجد بجلادها في لحظة موتها الأخيرة، قالت: معك حق، لكن تصور لو كان لنا طفلاً، ترى من سيشبه؟

أبعدها عنه بفظاظة وقال: سيكون مشوهاً على الأغلب، لأن حمل المرأة بعد الأربعين خطأ.

انخفض صوتها حتى انكسر وهي تحدث طبيب الأمراض النسائية، وحين قالت له إنها تريد إجهاض نفسها، توقفت دقات قلبها، كأن قلبها تعثر بشيء في ظلام روحها، فكرت أن حياتها حتى لحظة لقائها بالرجل كان يمكن التنبؤ بها، إنها تحفظ تفاصيل يومها سلفاً أما الرجل فلا يمكن التنبؤ بشيء، ليتها لم تعرفه، أسعدها أن الطبيب يتعامل معها برقة واحترام، أحبت أن تشكره على احترامه لها وتبكي أمامه ظلم ولا إنسانية الأخلاق هنا، رجته أن يتم الإجهاض في عيادته، لأنها تخشى من الفضيحة في المشفى، رجته أن يتم حالاً لأنها تخشى أن تفقد قدرتها على الانتظار، وتخشى أن تموت كمداً أو تقتل نفسها.

لم تشأ أن يكون بجانبها، فهو لم يعد يخصها، لم يسألها كيف ستتدبر أمرها، لم يسأل إن كان يلزمها المال. استنجد الطبيب بممرضته، أغلقا باب العيادة، زرقتها الممرضة بإبرة في وريدها، أحست أنها تغيب عما حولها، ضاق نَفَسَها، تمنت لو تموت، امتدت يدها الحرة من إبرة السيروم لتفك حمالة نهديها، هذا آخر ما وعته، لكنها ظلت تشعر شعوراً ضبابياً أن هناك آلهة تنتهكها، فتئن وتقول للدكتور: ألم تنته؟ فيرد: أرجوك ساعديني، رحمك

قاس. تعرف ما يود قوله بسبب العمر، أكان مقدراً لها أن تخسر الرجل والطفل في أوروبا؟

- أرجوك يا دكتور ألم تنته؟

- لكن عليك أن تساعديني، كفي عن التشنج.

- آه، ما باليد حيلة، صدقني، لا أعرف ماذا أشعر.

قال لها أخيراً: الآن يمكن أن أقول إننا انتهينا.

سألت بصوت منهك: كيف؟

- لأن الرحم أطلق صرخة، هناك مصطلح نسميه الصرخة الرحمية، يطلقها الرحم حين يتخلص من حمله.

ندت عن روحها صرخة خرساء تعود لمئات السنين، صرخة ملتاعة أحستها تنطلق من حنجرة النساء كلهن. مشت وحيدة شبه مترنحة، وصلت البيت تجرجر ذيول خيبتها، كانت الأسرة متحلقة حول المسلسل اليومي. لم يلحظ أحد شحوبها، لأن أياً منهم لم يلتفت إليها، تكومت في مقعدها، لاحت منها التفاتة إلى أختها التي بكت فجأة تأثراً على بطل المسلسل الذي فقد ذاكرته ولم يتعرف على أولاده. تظاهرت أنها تبتلع بضع لقمات عشائها، لكن فمها ظل مطبقاً على مرارة معاناتها، وقبل أن تستسلم لغيبوبة النوم سمعت صراخاً بعيداً حزيناً كله شجن، رددت أذناها كلمة جديدة أضافتها إلى قاموس كلمات القهر: صرخة رحمية.

شطارة

كان قرارها بأن تتشاطر متأخراً جداً، عشرون عاماً على الأقل، لكنه كان من الرسوخ لدرجة أحست أن كل خلية في جسدها توقع موافقة على قرارها الذي احتاجت لنصف قرنٍ كي تنضجه. كان الزمن يدفعها برفق أحياناً، وبعنف أحياناً نحو بلورة هذا القرار.. أجل ستتشاطر مثلها مثل كثيرات، لكن صورة فلك تطغى في ذهنها كلما فكرت بمنطق الشطارة، كانت صديقة طفولتها ومراهقتها وزميلة دراستها الجامعية في كلية الحقوق، في الجامعة، نبذتها لأن سلوك فلك كان بعيداً عن الأخلاق التي تؤمن بها رهام، لم تكن تلك جميلة لكنها كانت فائضة الأنوثة. كانت تملك شحنات أنوثة فائضة، شحنات توجهها وتوظفها من أجل غايات معينة تنجح دوماً في الوصول إليها.

كانت تختار ثياباً بسيطة وشديدة الإغراء، لم يكن الإغراء يكمن في الثياب، بل في الجسد الملتهب الذي يبث رسائل الفتنة الخفية مع كل حركة، قضت فلك سنوات الجامعة بالجينز الضيق والقمصان الضيقة من القطن المحزز الذي يظهر تفاصيل الجسد الفتي. كانت تتباهى بإظهار عري كتفيها النضرتين المستديرتين، في سنتها الجامعية الأولى صادقت فلك طالباً ثرياً من الأردن، خدّرته وجعلته يختزل جنس النساء في جسدها الصغير، الكل

لاحظ كم تستفيد من هذه العلاقة، المتيم ساعدها في دراستها وغمرها بالهدايا الثمينة وعزّفها بالمطاعم الفخمة، لكنها في نهاية العام الدراسي عقدت قرانها على ابن خالته، التاجر الثري القادم من عمان ليزور قريبه، استمر الزواج ثلاثة أشهر، لتعود بعدها فلك مطلقة ثرية، ولتستأنف عامها الدراسي الثاني بهمة عاليةٍ ومعنويات مرتفعةٍ، ودون أدنى إحساس بالهزيمة رغم غمزاتٍ طلاب الجامعة التي تدين زواجها بأنه زواج متعة، كانت تسير منتصبة القامة، متجاهلة التعليقات الجارحة التي تثقب أذنيها.

في عامها الدراسي الثاني نصبت فلك شباكها على أهم أستاذ في الجامعة، ولاحظ الطلاب أن علامات فلك قفزت من المعدل الأدنى إلى العلامة الكاملة في المواد كلها، كاد الأستاذ الذي يفوق عمره سن والدها ينسف زواجه الذي عمره عشرون عاماً، ليرتبط بالطالبة التي جسدت له فتنة الأنثى، حاولت جبهة الإنقاذ المؤلفة من زوجته وأصدقائه، إعادته إلى رشده، واعتقدوا أنهم نجحوا في مساعيهم، لكن الحقيقة التي تجاهلها الجميع أن فلك قررت التخلي عنه بعد أن انتهى دوره في حياتها، فقد تجاوزت سنتها الجامعية الثانية بتفوقٍ، ولم تعد مجرد طالبة، بل صارت الأنثى المدللة التي لا يُرَدُّ لها طلب في الجهاز التدريسي كله.

لم يلاحظ على فلك أي نشاط غرامي - انتهازي في عامها الدراسي الثالث، تساءلت العيون: هل زهدت؟ هل حدث انقلاب جذري في شخصيتها؟ هل خبت شعلة الفتنة في أعماقها؟ كانت تتغيب فترات طويلة، وتقدم تقارير طبية زائفة لعميد الكلية وفي نهاية السنة الثالثة، صدر قرار بإيفاد فلك إلى الولايات المتحدة في منحة دراسية، كيف وصلت إلى السفارة وحاكت تلك العلاقات؟

www.mlazna.com-رياح الشرق

لم يعرف أحد التفاصيل.

أنهت دراسة الحقوق وطارت إلى الولايات المتحدة، انطفأت أخبارها، البعض قال إنها تزوجت من أرمل مليونير، وآخرون قالوا إنها عشيقة أحد السفراء، والبعض أكد أنها تزوجت من زميل لها في الاختصاص، لكن السنوات المتعاقبة لم تحمل أي خبر مؤكد عن فلك، انشغل الطلاب بالهموم اليومية، وبلملمة الأحلام الوردية المتناثرة والذابلة لسنوات الجامعة بعد ارتطامها بالواقع الفظ.

عادت فلك بعد غربة عشر سنين في أمريكا، لتفتتح أهم شركة لأجهزة الكمبيوتر، تحولت الفتاة الفقيرة التي كانت خجل أن تزورها صديقاتها في البيت إلى سيدة أعمال يحسب حسابها، ارتقت سلم المجد درجة درجة، وصارت نجمة لامعة في المجتمع المخملي العهري، لم يعد أحد ينبذ فلك ويتهمها أنها داست على الأخلاق، أجمع الناس - خصوصاً الذين نبذوها واحتقروا سلوكها - أنها تشاطرت، الشطارة كلمة تذيب عدة معانٍ وتصهرها وتميع معناها، فأن تمطي الفتاة جسدها وتعيره لرجال في سبيل الوصول إلى مكاسب معينة، أن تتزوج زواج متعة لتكسب ثروة، وأن تؤمن أن الغاية تبرر الوسيلة، هذه الممارسات كلها تختزلها كلمة (شطارة).

فكرت رهام المنقوعة في تحنيط وظيفتها منذ خمسة عشر عاماً، أنها لم تمتلك موهبة الشطارة أبداً، حاولت أن تستعيد سيرة فلك وتتعلم منها وتستخلص العبر. كانت رهام تؤمن بالمبادئ والأخلاق، كلمتان تختزنان مفاهيم التربية الفاضلة والقيم الدينية كلها التي ترعرعت عليها، تزوجت وهي على أعتاب الثلاثين بعد خطبة دامت أربعة أعوام، كي تتمكن - هي وزوج المستقبل - من تأمين

غرفة وصالون ، أحست أنها تستحق وسام الصبر أكثر من وسام الشرف، حين قدمت للزوج عذريتها المحنطة ليلة الدخلة، إنها تفكر الآن بدهشة كيف صانت نفسها أربع سنوات، وكيف كانت تلجم خيول الشهوة من الانفلات من روحها المتوثبة للحب الحر.

بعد أربع سنوات من هزيمة الحب أمام تفاصيل الحياة اليومية، تطلقت، كان زوجها يبدأ يومه بلعن الظروف، فتحسه يلعنها، كأنه نادم على الارتباط بها، لم يكن يبالي بمدى الألم الذي تحسه وهو يعدد مناقب زوجات أصدقائه الثريات، لدرجة كانت تنفجر صارخة: لماذا لم تتزوج فتاة ثرية؟ فيتمادى بإهانتها، ويعدد أسماء الفتيات الثريات اللاتي حلمن به زوجاً، وبأنهن كن يقعن صرعى عينيه الخضراوين الفاتنتين، وقوامه الممشوق الرشيق، كانت تحس باشمئزاز وقرف، وتحدث نفسها بأنها تنفر من المرأة الجميلة حين تتباهى بجمالها، فكيف برجل لا حديث له سوى فتنته وجماله!

تحنطت في الوظيفة مذعورة من الغد، كانت تشعر أنها تجلس على بساط يتقلص يوماً بعد يوم وغالباً تستيقظ مذعورة وهي تحس أن البساط غدا رقعة صغيرة، وبأنها مهددة بأن ترمى في الشارع، لم تشعر بالتحول البطيء في حياتها، كحلزون يدخل شيئاً فشيئاً في قوقعته حتى ينكفئ داخلها إلى الأبد، صارت لا تجرؤ على التفكير بتناول الغداء في المطعم، أو دعوة إحدى صديقاتها لعشاء، تخاصمت مع محال الألبسة الجاهزة، وانسلت خطواتها إلى سوق الألبسة المستعملة، ومراراً كبحت صراخها في وجه والدتها: لم يعد بمقدوري شراء الدواء لك، يا إلهي من أين أتاك التهاب المفاصل الرثوي هذا؟

لكن انكماش المرأة المسكينة وراء سنينها السبعين والتشوه

الشديد في أصابعها، كانا يكبحان ثورات غضبها، رفعت شعار: خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، مضطرة، إلى أن التقت ذات صباح بفلك صديقة الطفولة والشباب، شاهدتها كيف ترجلت من سيارة فخمة لم تر مثلها من قبل، بعد أن فتح السائق الباب لسيدته، دخلت مباشرة إلى غرفة المدير الذي كان بانتظارها لعقد صفقة شراء أجهزة كمبيوتر من شركة فلك، تشابكت نظرات فلك ورهام، كل منهما التقطت نظرة الأخرى، تساءلت رهام بانكسار: ترى هل تذكرتني فلك؟ وتساءلت فلك بشماتة: ترى هل تذكرتني تلك المغفلة التي حرمت نفسها من بلوغ قمة المجد بسبب وهم اسمه المبادئ والأخلاق؟

لكن يبدو أن دفء العلاقة التي تبنى في الطفولة لا يخبو، فجأة اندفعت المرأتان باتجاه بعضهما بعضاً وتبادلتا عناقاً صادقاً، وكل منهما تؤكد لصديقتها أنها لم تتأثر بالزمن، كانت كل منهما بحاجة لتأكيد الأخرى أنها ما تزال شابة، لكأن تواطؤاً خفياً سربلهما وسرى في عناقهما، طرحتا في الوقت ذاته الأسئلة التقليدية ذاتها، ووجدتا في تعبير (الحمد لله) خير تمويه لفجوة الزمن الشاسعة التي فصلتهما، قدمت فلك بطاقتها لصديقة طفولتها، وألحت عليها تزورها، وبأنها مستعدة لتلبية أية خدمة تطلبها منها.

تمنت رهام أن تزورها في اليوم نفسه، وتطلب إليها، حتى لو اضطرت للبكاء لتريها مدى القهر الذي تعيشه - أن توظفها في شركتها - لكنها لجمت نفسها، لتؤجل الزيارة أياماً، إذ يصعب عليها سحق كرامتها أمام صديقة عمرها، سارت الأمور ببساطة غير متوقعة، للحال وظفتها فلك في قسم المحاسبة، وغمزتها بأن عليها أن تتشاطر إذا أرادت الحصول على نجاحات سريعة.

هوى قلبها وهي تعي أبعاد هذه الكلمة، لكن كيف يمكن لامرأة على أعتاب الأربعين أن تتشاطر؟ إنها لم تعد الفتاة الطرية الفاتنة كما كانت فلك في الجامعة، ولم تملك خبرة أو موهبة التشاطر أبداً، مرت سنوات حياتها أمامها كالظلال، تفرجت بعينها النفسية على حرمانها النفسي والجسدي القاتل بعد الطلاق، لكن الهموم المعيشة واللهاث وراء رغيف الخبز أنسياها جوع رحمها وجسدها، حاولت أن تقنع نفسها أنها بعملها عند فلك ستصيب عصفورين بحجرٍ واحد، ستشبع توقها للرجل الذي أضناها حرمانها منه، وستحقق مكاسب مادية كبيرة، ورغم أنها كانت تبتسم سعيدة، مؤكدة لنفسها أنها مقتنعة تماماً بقرار تشاطرها المتأخر وبأن عشرين عاماً من ذل الحرمان قادتها للإيمان بإيمانها الحالي بمبدأ الشطارة، لكنها كانت تحس في قمة حماستها بعالمٍ يتقوض في داخلها، وبصدى نواح روحها آتياً من بعيد، من غرف روحها العميقة جداً، فتتهاوى بانكسارٍ وهي غير قادرة على خداع نفسها بزيف وبطلان أفكارها كلها.

قررت أن تتشاطر لأول مرة، حين طلبت إليها فلك أن تقنع مدير أهم شركة لاستيراد السيارات بشراء أجهزة كمبيوتر من شركتها، قالت لها فلك:كل جهاز تبيعيه لك نسبة عليه، هيا تشاطري، فكرت يبدو أن فلك ما عادت ترضى بأسلوبها القديم، امتطاء جسدها للوصول إلى غاياتها، لعلها صارت تمتطي ما هو فعال أكثر من الجسد؟ ترى ما هو؟ هذا ما كانت تفكر به وهي تطلب إلى السائق أن يوصلها إلى التاجر المرموق، فيما يداها منهمكتان بفك الزرين السفليين للفستان، ثم بتكثيف عطرها وأحمر شفاهها.

استقبلها التاجر بحفاوة مصطنعة، قررت من اللحظة الأولى

أن تتشاطر، جلست بطريقة يجعل فستانها ينحسر كاشفاً عن جزء واسع من فخذيها، وكانت بلا سبب تشحن ابتسامتها بطاقتها كلها على الإغواء، وصلت الرسالة سريعاً إلى التاجر، حدثت الرجل ذو الكرش الهائل عن أجهزة الكمبيوتر الرائعة، وختمت حديثها بأنه يسعد السيدة فلك أن تتعاون مع شركته، لفظت كلمة تعاون بطريقة ملتبسة، ليفهم من خلالها أن ثمة تعاوناً سرياً سينشأ بينها وبينه، أشعل سيجارة، ضغط زراً بجانبه وقرّب فمه من الآلة طالباً عصير برتقال، أحضرته بعد ثوان شابة رائعة الجمال تلبس تنورة قصيرة من قماش مطاطي يلتصق بالجسم كاشفة عن ساقين بديعتين، أحست وهي تتأمل الشابة بثقل سنوات عمرها، أعطى أوامره للموظفة بألا تزعجه وألا تحول له المكالمات الهاتفية، قالت الموظفة بلهجة الطاعة التامة حاضر، وهي تغلق الباب وراءها، تحامل على نفسه وقام من كرسيه حاملاً ثقل كرشه، قدم لها كوب العصير بيمناه، بينما يسراه تقرص فخذها، أجفلت كيف انتهكها بهذه البساطة، ودت لو تصرخ: إيه، ماذا دهاك؟ لكنها تذكرت أنها اتخذت قراراً بالتشاطر، ابتسمت مدارية ارتباكها موحية له أنها سرت بسلوكه.

قال لها: أنت ساحرة حقاً، هل تقبلين دعوتي على الغداء.

قالت وهي تحس أنها ترتقي الدرجة الأولى من سلم المكاسب بشطارتها: بكل سرور، تذكرت أن كل جهاز ستبيعه، ستقبض عليه عمولة، لكنها تمنّت من قلبها لو كان التاجر مقبول الشكل، ما هذا الكرش الهائل الذي تحسه قادراً على احتوائها فيما انطوت قليلاً؟

أثناء الغداء اكتشفت أسنانه البنية الكريهة المصبوغة بدخان سيجارة، أصابها اشمئزاز، وتذكرت معادلتها البائسة، سأشبع جسداً

هـذه الحرمان وأستفيد مادياً؟ أي إشباع هـذا، كادت تتقيأ الطعام وهي تتخيل أنه يقبلها ويداعبها.

حين رافقته إلى الشقة بعد الغداء، أحست أنها ترمي نفسها من شفير هاوية لا تعرف قرارها، لم يكن مجرد بيت، بل قصر حقيقي، وما إن جمعهما سقف واحد حتى أخذ يخور كثور، فك أزرار بنطاله وشدها إليه لتغوص في كرشه الهائل، التهمها بثوانٍ، وهي تحس أنها تكاد تتقيأ أمعائها من شدة قرفها.

خرجت مهشمة لدرجة أنها لم تجرؤ على النظر إلى نفسها في المرآة، كانت تلملم أشلاءها قطعة قطعة، وهي تحس أنه مضغ لحمها بأسنانه الخشبية البنية، تساءلت بضياع أهذه هي الشطارة؟ لكم هي شاقة! ما أصعب أن تتشاطر المرأة! بعد أيام استدعتها فلك وأخبرتها أن التاجر رفض شراء أجهزة الكمبيوتر من شركتها، فهمت كلامها جيداً: لم تتشاطري كفاية، ودت لو تعترف لها بما حدث، لكنها لم تجرؤ، يا لها من حمقاء! كان لا يجب أن تسمح له بلمسها إلا بعد أن يشتري الأجهزة.

قالت لها فلك - ملكة التشاطر: حسناً سنهمله الآن، سيعود عاجلاً أم آجلاً أنا متأكدة، الآن لدينا الأهم، يجب أن تساعديني يا رهام بعقد صفقة بالغة الأهمية مع شركة يابانية تصنع الجهاز نفسه بنصف القيمة، تصوري يا رهام، يجب أن نحيط الوكيل باهتمامنا ولا نسمح لأحد أن يتشاطر أكثر منا ويعقد الصفقة مع الوكيل، سأقيم حفل عشاء على شرفه وسأكلفك شخصياً بدعوته، إنه يقيم منذ يومين في الشيراتون.

حلّ صمت ثقيل بين المرأتين خرقته فلك بقولها: خسارة يا رهام، ضيعت أجمل سنوات شبابك وأنت سجينة أوهام.

www.mlazna.com-رياح الشرق

همّت أن ترد عليها، لكنها أثرت الصمت، لأن الطريقة التي لفظت فيها فلك مفرداتها، جعلتها تشعر حقاً أن الزمن انقضى كسرابٍ كالظلال، كغيمة شاردة. أحيت بينها وبين نفسها حفلة رفع معنويات، حدثت نفسها بأن ما حصل مع التاجر خطأ جسيم لن يتكرر مع الوكيل الياباني، هذه المرة لن تعطي قبل أن تأخذ، يجب أن يوقّع العقد أولاً، ثم.. فكرت ماذا لو كان الياباني كريهاً وذا كرشٍ هائلٍ؟ لكنها فوجئت أنها بحضرة شاب جميل رشيق يصغرها بسنوات، غمرت روحها بإحساس طاغ بالخجل: هذه المرة سأستمتع مع هذا الشاب، فعلاً الشباب ثروة. حدثته بإنكليزية صحيحة عن رغبة الشركة بالتعاون مع الشركة اليابانية، كان فائق اللطف، رغم إحساسها أن لطفه مدروس، وبأنه جزء من عمله، دعاها إلى غرفته ليقدم لها هديته الخاصة، قال لها بأنه يحمل دوماً هدية خاصة، يقدمها للمرأة التي تدهشه أكثر.

أحست أن إرادتها مشلولة، كيف تنقاد وراءه إلى غرفته قبل توقيع العقد؟ لكن ماذا لو تنفس جسدها بحضرة جسد فتى طالما أضناها حرمانها منه؟ كانت الهدية رائعة حقاً، حديقة من الخشب محفور بدقة، تمثل أشجاراً وزهوراً وبيتاً ريفياً، تسكن قفصاً من زجاج. احتواها من الخلف بين ذراعيه القويتين، غزتها رائحته دفعة واحدة. همس لها بكلمة واحدة محملة بشبقه كله، اختزل أحاسيسه كلها وهو يقول هامساً: تعالي. أدهشها أنها لم تملك ذرة مقاومة، نست كل شيء: بؤس الماضي، حاضرها، عمرها الهارب، إطلالتها على الأربعين، أنساها جسده الفتي إحساسها بالواقع، بالزمان والمكان، خدرها، وحاولت وهي تستسلم له أن يزيل طبقات صدأ الأيام والحرمان، طبقة طبقة لكنها أحست بخيبة وهي تتفرج

على وصالهما من علٍ كيف غيبها، وكيف كان همه الوحيد أن يقضمها، كما يقضم تفاحة، ويرمي النواة في القمامة، أحست أن حاجته إليها، كحاجته حين يكون عطشاناً ويشرب كوب ماء مثلج حين شبع من جسدها، سارع الحمام، سمعت صوت الماء ينسكب على جسده، كانت منهمكة وعارية في السرير غريب، غير منتبهة للدموع الطافحة من عينيها والتي تسير بخطٍ أفقي حتى تنسكب في جوف أذنيها، فكرت بالطاقة القليلة المتبقية لديها للتفكير بأن اللقاء بين آدم وحواء يجب أن تكون ركيزته الأولى الحنان وليس الشهوة، لقد استهلكها، لم تشعر بإنسانيتها وتفردها، إنها الأنثى التي يرغب أن يشبع منها، مشكلتها أنها لا تستطيع أن تتعامل مع الجسد بمعزلٍ عن الروح، هكذا تكوّنت، أم كوّنها - لا فرق - طوال حياتها لم تشهد خصاماً بين روحها وجسدها، انسل سؤال خبيث إلى أذنيها أحست أن الوسادة تهمس بها: لكن ألا تعني الشطارة أن يرسم الجسد طريقةً بمعزل عن الروح؟!

لملمت أشلاءها وهي تتساءل:كيف يكون للجسد طريق، وللروح طريق آخر؟ آلمها أن تضاجع رجلاً لا يخصها بكلمة تدل على اشتياقه لها، انتظاره لها، أرادت أن تنتزع موافقته على التعامل مع شركة فلك التجارية، لكنه تملص بذكاء وقال إنه مضطر لدراسة شروط شركات عدة قبل أن يتخذ قراره، سألته عيناها بانكسارٍ: وجسدي، ألم يكن عربوناً كافياً للاتفاق؟ لم تعرف أنه قد فهم لغة عينيها المنكسرتين، لكنه ربت على كتفيها بجفاءٍ وقال لها: أنت امرأة رائعة، أتمنى أن أراك غداً.

خنقها الهواء المشبع بالترف في الشيراتون، تساءلت وهي تحس بالاختناق: ترى ما هي قواعد الشطارة؟ كيف تشاطرت فلك

وتحولت من طالبة مغمورة إلى سيدة ثرية تلعب بالملايين؟ ترى ألا توجد كتب ومراجع تدلني على أساليب الشطارة؟! بعد أيام تلقت نتائج خسارتها، ضاجعت رجلين ولم يتعاملا مع الشركة! تساءلت: ترى هل تعرف فلك أن الرجلين ضاجعاها؟ فلك تعطيها ثلاثة أضعاف راتبها، لكنها تشعر أنها تملكها، من حسن الحظ أنها لم تعلق على فشلها مع الوكيل الياباني ومع تاجر السيارات، ترى ماذا يدور في دماغ فلك؟ ماذا ترى فيها من إمكانيات، وهي تستطيع أن تشتري بنات العشرين، الفائرات بالنضارة لترسلهن هدايا للتجار الذين تود عقد صفقات معهم؟ بعد ثلاثة أشهر استدعتها فلك لتقول لها منفعلة بأن فرصة العمر قد زفت، وبأنها سترسلها إلى السعودية لتشرف بنفسها على العمل في فرع الشركة الذي ستفتحه في الرياض، هوى قلبها: السعودية، إنها لا تتخيلها سوى بئر بترول يجلس بجوارها رجل يلتهم امرأة، لكنها داخت حين ذكرت لها الراتب، لم تتمالك أن سألتها: لكن لماذا أنا يا فلك؟

قالت فلك: لأنني أعرفك، أثق بك، أنت خارقة الذكاء يا رهام، متحدثة بارعة ومقنعة. أتعرفين، لا أزال أذكر افتتاني بمواضيع التعبير التي كنت تكتبينها.

ضحكت وهي تسألها: أما زلت تذكرين تلك الأيام!؟

قالت فلك: طبعاً، خسارة يا رهام، أحياناً يضيع الإنسان حياته معتقداً أنه يسير بالطريق السليم، للأسف أنت صدقت الناس وآمنت بما يسمونه الأخلاق، في الحقيقة الحياة لعبة شطارة، انظري إلى أكثر الأسر تبجحاً بالأخلاق، إنهم يغضون النظر، المهم مصلحتهم ومصلحة بناتهم، مشكلتك أنك صدقت تلك المبادئ، فماذا كانت النتيجة؟

قالت: أرجوك لا داعي لهذا الحديث، أريد أن تمهليني بعض الوقت لأدرس موضوع السفر إلى السعودية.

- وهل يحتاج هذا الموضوع لدراسة يا رهام، إنها فرصة عمرك.

- أرجوك، عدة أيام فقط.

- حسناً كما ترغبين.

لم تفارقها الكوابيس، كانت تستيقظ كل ليلة على أحلام موضوعها عشرات الرجال بعباءاتهم البيضاء وعمامات رؤوسهم، يطلبون إليها أن تتعرى، وهي تصرخ، لكن صراخها تبدده الصحراء، يقدمون لها كأس وسكي مملوءاً بالثلج، ما إن تتذوقه حتى تكتشف أنه بترول، تستيقظ مجفلة، مهدودة القوى.

في حياتها لم تكن كآبتها شديدة الوطأة عليها، كما كانت في هذه الأيام، تستيقظ مذعورة والكآبة والكرب متربصان بها ويحدقان في وجهها بعيون من رماد، شكت أنها مصابة بالربو لضيق النفس الشديد الذي أخذ ينتابها، كان صوتاً ساخراً لا يرحمها ينفلت من مكان ما من روحها يقول لها: هيا تشاطري هناك في السعودية. في ليلتها الرابعة، هاجت أشواقها لراتب الاحتقار، كما كانت تسميه، اشتاقت لأزقة سوق الألبسة المستعملة، أسعدها أنها تطيل التفرج على الواجهات ولا تشتري منها، انتفضت من فراشها، ورغم أن الساعة لم تكن قد تجاوزت الخامسة فجراً، إلا أنها رفعت سماعة الهاتف، وأدارت بتصميم الرقم، أتاها الرنين الطويل ثم صوت فلك ناعساً، ممطوطاً، وقبل أن تترك لها فرصة الدهشة، قالت لها وهي تحس أن صوتها يخلصها من دنس الأيام التي قضتها تحت خيمة فلك: اسمعي يا فلك، لن أتشاطر، لن أتشاطر.

www.mlazna.com-رياح الشرق

أغلقت السماعة وهي تحس أنها تبرأ من علة أصعب من السرطان، وأشد فتكاً منه، عاد لها إحساسها القديم بالحرمان رقيقاً ناعماً كوشاح من حرير، غمرها دفء شفيق، أحسته كرجل يحبها منذ زمن ولا يجرؤ أن يبوح لها بحبه خوفاً من صدها له، إنها الآن تحس بقيمته ونزاهته، لن تصده، سترتمي في أحضانه الدافئة، إنه يحبها ويحترمها لذاتها، ويعتذر منها بقوة الحب إن جيوبه خاوية.

اعتذرت من إحساسها القديم بالحرمان، أليس هو تحديداً الذي حفظ روحها من الاهتراء والنخر!!

نوبة ربو... نوبة حب

حين ضغط زر المصعد بسبابته بإلحاح، وبمرات متلاحقة، ولم يستجيب الأخير هاج بغضب عظيم تفجر من مسامه كبخار محتبس، لكأنه كان ينتظر شرارة الاشتعال، حمل هزيمته وهمَّ بصعود المئة وثلاثين درجة حتى يصل إلى بيته الأنيق في الطابق التاسع، كان يحمل كيساً فيه سمك وخضار وفاكهة، واشتم رائحة نوبة الربو ما إن وصل إلى الطابق الثالث، وتردد صدى صراخه الأخرس في قفصه الصدري: اللعنة، اللعنة على الساعة التي قبلت فيها أن أسكن الطابق التاسع، وتذكر ولديه غاضباً يوم نصحاه أن يسكن في شقة هادئة، صحية، وأن هذه الشروط لا تتحقق سوى في الارتفاع، وسمع صوت ابنه الأصغر يحدثه: في الطابق التاسع لا غبار ولا ضجيج ويمكنك أن تطل على المدينة كلها، يا سلام ما أروع المنظر! وحين اعترض بأنه هرم ولن يتمكن من صعود الدرج قاطعه ولداه قائلين:

- ألا ترى أن البناية مجهزة بمصعد؟ وخرج صوته معترضاً أشبه بالأنين: وإذا تعطل المصعد؟ قالا معاً: هذا احتمال نادر، فهناك مولد كهرباء خاص به. انصرف كل منهما إلى حياته الخاصة، معلقين الولد الكهل في الطابق التاسع، معتقدين أنهما أرضيا ضميرهما حين أمنا له أوكسجيناً وهدوءاً وإطلالة رائعة،

كانت نوبة الربو قد تبلورت حين وصل في صعوده إلى الطابق الخامس، وهمدت قنبلة غضبه المتفجرة، وتحولت إلى رماد، وهو يقر لنفسه: إن رجلاً عجوزاً في الخامسة والسبعين لا يحتاج لشيء في العالم، لا طعام، ولا شراب، ولا رفاهية، ولا مناظر خلابة، ولا لأوكسجين نقي، إنه لا يحتاج إلا لعاطفة، أين أنتما لا أراكما سوى مرة أو مرتين في الشهر، وأتلقى منكما مكالمات باردة تشعرني دوماً بصقيع وحدتي: كيف الحال، ماشي الحال... حدث نفسه وهو يتحامل على نفسه صاعداً درج التعذيب، يا لفظاعة الوحدة، وتذكر أن كل مرة يحدثانه فيها يذكرانه بوجوب عدم خلو بيته من دواء الربو، ذات مرة صرخ فيهما:

- البيت لا يخلو من دواء الربو، لكنه يخلو من العاطفة، أحسه كالصقيع رغم الشوفاج.

أخذ ضيق نفسه يشتد، جلس على الدرج ملقياً جانبه كيس الأغراض، كانت أربعة أبواب خشبية تتنافس في أناقتها تحيط به، أحسها موصدة في وجهه كما الحياة تلك اللحظة، تلقيه شيخاً وحيداً على الدرج مُزرقاً من الاختناق، آه ليته يحمل بخاخ الربو في جيبه، فكّر لو يقرع أحد الأبواب طالباً المساعدة، لكنه لا يعرف أحداً من جيرانه، لم يفكر أي منهم بزيارة شيخ وحيد في شقته، وذكر كيف حاول التودد للأطفال ليزوروه ليسليهم، وبفتح فمه المقفل بالصمت، دوماً يحكي لهم قصصاً تسليهم، أو يخبرهم عن النوادر التي مرت معه في عمله كأستاذ جامعي في كلية الحقوق، لكن أياً من الأطفال لم يبال به، ربما يمنعهم أهلهم من زيارته، فهذا زمن التوجس، كل واحد ينظر إلى جاره مرتاباً، كل منهم علق شعاراً في بيته وفي دماغ أولاده: كل إنسان سيئ

www.mlazna.com-رياح الشرق

حتى يثبت العكس.

لكنه فوجئ ذات يوم بشاب يزوره، يحمل كتبه المدرسية، احتفل به، احتفاله بالزائر الأول الذي يقرع جرسه ويقصده في سجن وحدته، وبادره الشاب: هل تمانع أن تساعدني في دروس اللغة الفرنسية؟ أمي تقول إنك تتقن الفرنسية كالعربية تماماً. يومها ابتسم في وجه الشاب مدارياً ألمه، هكذا إذاً، يفكرون به ماذا يمكننا أن نستفيد منه؟ لكنه حاول إيجاد الأعذار لهم، فماذا ينتظرون من عجوز في الخامسة والسبعين، وكل مشغول بهمومه اليومية ومشاغله؟

تحامل على نفسه تاركاً الكيس على الدرج، واستمر في الصعود وهو يلهث وقد ابتدأ صوت كالأزيز مختلطاً بخراخر رطبة ينطلق من صدره، وأخذ عرق بارد يتصبب من وجهه وينضح من راحتيه وغامت الرؤية أمام عينيه وكاد يسقط، وبلحظة خيل إليه أنه يهوي فعلاً من أعلى الدرج، ويتدحرج حتى يبلغ القاع أو القبر لا الفرق. ترى ما الذي ينتظره بعد؟

وصل أخيراً الطابق التاسع، لم يكن بكامل وعيه، أحس الدنيا تدور أمام عينيه وقد جحظتا من قوة الجهود التي بذلها لإدخال الهواء إلى رئتيه، وأحس أن الباب فتح بقوة زفيره وليس بالمفتاح، أسرع يحضر بخاخ الربو ويستنشق على دفعتين جرعات كبيرة من الرذاذ، وهو يتهالك على كرسيه الهزاز، كرسي وحدته الذي يجلس فيه ساعات، كل يوم تأرجحه الذكريات، أعاد استعمال البخاخ بعد دقائق وتنبه أن العبوة في يده قد فرغت، ضحك ساخراً متذكراً أنه لا يملك غيرها، خطر له أن يتصل بأحد ولديه ليسارع إلى نجدته أمكنه أن يسمعهما يؤنبانه:

- كيف لا تحتفظ ببخاخات احتياط أي إهمال هذا.

لكنه أمر خياله أن يطردهما من ذهنه، اتسعت قصباته المتشنجة واستنشق الهواء، وتذكر أنه ترك كيس الأغراض على الدرج، أوه ليكن؟ قال ذلك لنفسه وأخرج من جيبه منديله القماشي ليمسح عرقه المتفصد بغزارة من وجهه، لكنه فوجئ بدموع غزيرة تتساقط من عينيه دون أن يحس بها، قام عن كرسيه الهزاز ليحضر لنفسه كوب ماء، وللحظات كاد يفقد توازنه، وهو يراها ويسمع صوتها رقيقة حنونة، ترجوه أن يجلس وألا يتحرك، ستحضر له الماء، صرخ من أبعد نقطة في روحه: آه أنجيل، أنجيل، كنت أبكيك دون وعي مني، تذكر كيف خافت لدرجة الذعر حين رأته أسير نوبة الربو، كانا متزوجين منذ شهرين، ما أحلاها، فتاة رقيقة في الرابعة والعشرين محامية طموحة تحلم بالدفاع عن حقوق المرأة، كان يسخر منها قائلاً إن حماستها طفولية وسخيفة، وإن أوضاع المرأة والقوانين المتعلقة بها من الرسوخ لدرجة لا تقدر محامية مبتدئة مثلها أن تغير منها قيد أنملة، لكنها كانت تفيض حماسة، وهي تشرح وجهة نظرها عن مسؤولية كل امرأة واعية ومثقفة في العمل، عن إزاحة الظلم قدر الإمكان عن المرأة. كانت من الوداعة لدرجة لم تجرحها سخريته، كل ما كانت تقوله محتجة: أوه كفى لماذا تتحدث معي هكذا؟ لكنه أحس مع الزمن، وتأكد أنه ليس محور حياتها، وأنها إنسانة ذات شخصية مستقلة وهدف تسعى لتحقيقه، تأكد أنه يرغب في تحطيمها، ترى لماذا؟ إنه لا يعرف تحديداً، لكنه يريدها غنمة، يريد أن يكون وحده هو عالمها ودنياها، وأن يهبها أطفالاً ويحولها للأم الزوجة الخادمة، الثلاثي المثالي لإنجاح الزواج، هكذا يجب أن تكون زوجته، لكنها أصرت على ممارسة

مهنتها باندفاع تحداه وأخذ يختلق الشجارات معها حتى حشرها في زاوية قائلاً:إما الطلاق، أو تتركي مهنتك؟ واختارت الطلاق رغم أنه أحسها تسقط وتتهاوى لكنها تظل واقفة على قدميها. من السهل الآن أن يعترف لنفسه وهو على كرسيه الهزاز، أن حقده عليها تحول لهدف حياته، وغايتها، وتسمم بفكرة تحطيمها، وتذكر كيف قدَّم طلب إعارة إلى الجزائر أربع سنوات، لغاية وحيدة هي حرمانها من ولديها، أوه لا شيء يموت، فها هي ذاكرته تعيده سنوات إلى الوراء ليراها منهارة وسط دموعها ترجوه أن يترك لها الأولاد، لكنه رفض، وقال لها متشفياً مستمتعاً بسعادة انتصاره: أنت اخترت، كان بإمكانك ترك المحاماة والبقاء أماً وزوجة.

كانت تلهث من الألم والتعب، قالت: ليس موضوعنا الآن، لا تحرم الصغيرين من القلب الذي لا يمكن لقلب سواه أن يحبهما مثله.

ضحك ساخراً، كان يأمل أن ترجوه ليعيدها زوجة، لتذعن لرغبته وتتخلى عن عملها، لكنها لم تحقق ما تمناه، فليعوض بسلطته على حياتها؟ بقدرته على حرمانها من الصغيرين. وفي الجزائر ألقى بولديه في مدرسة داخلية، متعامياً عن وجودها الدائم، وحين سمع بعد سنة أنها تزوجت جنّ من الغيرة، وبقي أكثر من ستة أشهر يحلم أحلام يقظة دائمة، حتى وهو يلقي بمحاضراته في الجامعة - بأنها تموت بحادث سيارة، أو بأنه يخنقها أو يطلق النار عليها، كان جنون غيرته يفترسه بلا رحمة.

آه يا كرسي الذكريات الهزاز، لماذا تؤرجحني بين الذكريات، صفعته صورته يشرب منتشياً نصف زجاجة من الويسكي، طافحاً بشعوره بالنظر حين أتاه خبر طلاقهما بعد نصف العام من زواجها.

يومها أقام احتفالاً أسطورة بينه وبين نفسه، كانت أعنف سعادة يشعرها في حياته، لا تعادلها، حتى خبر ولادة ابنه البكر... كان لسان حاله يقول متشفياً: فلتنجحي في عملك كمحامية، لكني انتصرت، ألم أحرق قلبك وأحرمك من أولادك، ألم يستطيع أن يمد سلطته ونفوذه على محامية ذاع صيتها في الدفاع عن حقوق المرأة، بينما هي في الحقيقة أم ملتاعة وزوجة تجرعت المر، على كرسيه الهزاز في الطابق التاسع، وفي يمناه بخاخ الربو الفارغ وفي يسراه منديله المبلل بدموع الندم المتأخرة حوالي نصف قرن، تساءل وهو يستنشق هواء مختلفاً هذه المرة بعمق وشراهة: لماذا قضيت عمري ضحية أحقاد لا منطقية؟ وأحس تلك اللحظة بعذوبة أنجيل كما لم يشعر وهما عروسان وتنهد ساكباً دفعة جديدة من دموع ندمه، امرأة دافئة حقاً، رقيقة وطموحة، وأقر بإعجابه العميق بها كونها ذات قضية تؤمن وتعيش لأجلها، وأحس أن حقده العميق ما هوى سوى اعتراف مبطن لإعجابه الشديد بشخصها، إنها ليست أي امرأة، إنها كيان له فرادته وخصوصيته، وليست غنمة ولا ظل رجل وهي تتمتع بكرامة عالية لدرجة لا تسمح للحب أن يسلبها شخصيتها. استسلم لاهتزازات الكرسي، يؤرجحه في جحيم الذكريات، كم كان قاسياً وحاقداً وشرساً، كم كان سادياً يسعده تعذيب إنسانية أحبته بصدق ولم تؤذه يوماً، ما أصعب اللحظة التي يدرك فيها الإنسان بشاعة ماضيه، وقذارة ما أفرزته يداه. قلبي النجس، قالها محترقاً، وجسده يسخن بحرارة جديدة لم يعرفها في حياته، إنه يحبها، يحبها ويندم بعد فوات الأوان، يحبها ويدرك متأخراً حوالي نصف قرن أنه شوه حياتها وأحرق قلبها وأساء لأعز شخصين في حياته، ولديه، لماذا؟ حرمها من الحب الكبير الذي

ظل حبيس قضبان قلبها؟ لماذا تضيع الحياة في الحقد؟ أوه كيف يكفّر الإنسان عن خطايا سنوات وسنوات؟

كان انفعاله الشديد قد حرض مجدداً ضيق تنفسه، همَّ أن يقوم عن الكرسي ليتصل بأحد أولاده ليحضر له دواء الربو، لكنه ما كاد ينهض، حتى انصاع لصوت يأمره بالجلوس، رمق جهاز الهاتف ووجد نفسه يقول: لا، لن أتصل، سرح نظره للحظات عبر زجاج النافذة، كانت المدينة تحته تعج بالحركة، وهو عالٍ جداً كروح طائر، شهق مكتشفاً فكرة مذهلة، لماذا لا تعلو روحه؟ لماذا يختار لحظة موته؟ وهل تكون ساعة موته أفضل من تلك الساعة؟ وهو متعمد بالندم يبكي ألماً واعتذار من أنجيل؟ فليغادر الحياة متطهراً بنور حبه لها وندمه الشديد على أحقاد استعمرته سنوات وسنوات، أحس بالضيق في صدره يعاوده مجدداً، أغمض عينيه مستسلماً لإغواء أن تطير روحه خارج جسد الأحقاد، تحلق عالياً فوق المدينة، متحررة من ذاكرة كهل عاش سادياً، يسكره أنه يملك سلطة تعكير المصير اليومي لامرأة لم ترض أن تكون جاريته، بل أرادت أن تكون حبيبته، قام بفتح النافذة، وصوت أزيز صدره يعلو ويعلو، معتقداً أن روحه ستطير منها، تحامل على نفسه واتجه إلى غرفة المكتبة، باحثاً في درجه الخاص عن صورتها، لكن الصور التي طالعته كانت كلها صوره مع ولديه، في طفولتهما وشبابهما، لقد أقصاها حقده عن عالمها، طردها خارجاً، ما كان يضيره لو كانت إلى جوارهم في الصور، استمر يبحث في الصور، فيما قصباته تنغلق الواحدة تلو الأخرى، محولة لونه من الشاحب الأصفر إلى الأزرق، في قاع الدرج لمح صورتها بالأبيض والأسود، صورة هوية صغيرة متشققة وقد تشكلت بقع

محت جزءاً من الجبين والعنق والعين اليسرى. أمسك الصورة بيد ترتعش، رفعها إلى شفتيه ليقبلها، لكنه تهالك لاهثاً، يطلب الهواء أو يطلبها هي، لأن حنجرته كانت تئن منادية أنجيل، أنجيل، سقط أرضاً يرتعش وقد جحظت عيناه، فيما الصورة تسقط عن يمينه منقلبة على ظهرها، وقرأ خطها الذي لا تزال آثاره باقية: أحبك مدى الحياة.

ترك نفسه محتضناً ومحتضراً بين كلماتها، في دفء وجهها، كان شعوراً أخيراً بالرضا يغمره كونه يقدم لها روحه في تلك اللحظة راضياً.

صعقة الحب

التقته في نيويورك، أثناء زيارتها لأخيها، كنت وحدي أعرف سبب سفرها وأشجعها عليه، شفاء من حب عشش في روحها طويلاً وانتهى بالغدر، حاولت أن أقنعها دوماً بأن الحب الذي ينتهي بالغدر لا يصح أن يسمى حباً على الإطلاق، وكانت تجيبني وسط دموعها: كيف سأتخلص من مخزون سنتين ونصف من الذكريات الرائعة؟ فأقول لها باستخفاف أحاول جاهدة توصيله كاملاً إليها: أنت تبالغين، بالتأكيد ليست ذكريات رائعة، لأنها زائفة، فحبيبك لم يستحق حبك وإخلاصك بل تخلى عنك في أول فرصة ليبيع نفسه لفتاة ثرية تختصر أمامه سنوات من الكفاح.

ما كانت تخجل أن تبوح أمامي بكل شيء، فأنا صديقة الطفولة والشباب والدراسة، كانت تتمنى لو يترك خطيبته الثرية ويعود إليها، ستغفر له، وكان ضعفها يغضبني، خلافنا الحاد كان حول مفهوم الكرامة في الحب، كنت أثور عليها وأصرخ قائلة: كيف تقبلين الرجوع إليه إذا ترك خطيبته؟

فترد بانكسار، كل واحد معرض للغواية، المحب هو الذي يغفر.

وأحتد قائلة: هناك أخطاء غير قابلة للغفران، لأنها تكشف معدن الشخص، واختياره وقيمه، خطيبك لم يخطئ بحقك من غير

www.mlazna.com-رياح الشرق

قصد، بل اختار المال، تركك من أجل فتاة ثرية.

تقول باستسلام: معك حق، ولكن، يختنق صوتها وتهمس: أنا أحبه.

طوال حياتي لم أستطع فهم الحب كمرض، الحب يجب ألا يكسر فينا الكرامة والمشاعر الجميلة يجب ألا يحني رقابنا ويحرق عيوننا بالدموع، وحين اقترحت عليها أن تتخلص من صورهما ورسائلهما لتساعد نفسها على النسيان، رفضت، قالت: لا أستطيع تمزيق سنتين من حياتي.

كتبت لي في الطائرة بأنها لم تتوقف عن البكاء في الجو، وبأنها ندمت كونها سمعت نصيحتي وسافرت، ليس أصعب من اصطحاب جراحنا الطازجة في أسفارنا، قالت إن ألمها يسلخها عن إحساسها بكل شيء جميل، وبأنها تحار كيف ستقضي تلك الأسابيع مع أخيها في نيويورك.

وصلتني رسالتها بعد عشرة أيام من سفرها، ماذا عساني أقول أكثر مما قلته لها، قررت ألا أرد على رسالتها، فقد تحمل كلماتي رائحة حبها المغدور، تشعرها أكثر بسخونة ذكرياتها الملتهبة التي كنتُ وسيطة في قسم كبير منها، كنت أؤمن أن أفضل طريقة للنسيان هي أن يقذف الإنسان بنفسه في جو جديد وغريب، دون شفقة على روحه، يترك الأمواج تتقاذفه فإما أن يشفى ويكون جديراً بالحياة الجديدة، أو ينهار.

بعد ثلاثة أسابيع من سفرها، تلقيت منها هاتفاً أيقظني قبل الفجر. هوى قلبي وأنا أسمع صوتها، حاصرتني عشرات الاحتمالات السيئة، اعتذرت مني عن الإزعاج، وأسرعت تطمئنني أنها بحالة ممتازة، وبأنها التقت بالشاب الذي يستحقها، حدثتني

عنه، صديق لأخيها طبيب أمراض عصبية، مغترب في نيويورك منذ عشر سنين، قالت بأنها التقته ليلة وصولها، وبأن لقاءاتهما تكررت وصارحها برغبته بالارتباط بها، قالت بأنها لم تستطع منع نفسها عن شكري، لأنني كنت السبب الرئيسي في سفرها.

لم تنسَ أن تطمئن عليّ، وأن ترسل سلامها الحار لخطيبي الذي أصبحت تربطها به صداقة بسبب متانة صداقتنا. مددت إقامتها في نيويورك أسبوعين آخرين، وحين عادت كانت مختلفة تماماً، مشرقة، هائجة بالسعادة، تعجز عن ضبط ابتسامتها، متفائلة لأنها اكتشفت إكسير السعادة الأبدية، وحين حاولت أن أجسّ ندبة حبها القديم قالت ضاحكة: أحس أنه بعيد بعيد، لكأنني انفصلت عنه منذ سنوات.

كانا قد اتفقا على الخطبة والزواج والعيش الدائم في نيويورك، وكانت سعادتها تفيض فتفاجئني بقبلات طائشة وهي تقول:

صدري لا يتسع لتلك السعادة، أكاد لا أصدق ما حصل معي. بذرة شك ظلت تنخر في عقلي، شيء ما في قصة صديقتي لا يقنعني، ترى ما هو؟ ألا يحتمل أن تكون عواطفها العاصفة تجاه حبيبها الجديد كتعويض عن فشل حبها القديم الذي لم تترك لذاكرتها فرصة لنسيانه، وهل هو أحبها حقاً، أم يبحث عن زوجة من بلدة؟ هل تقصدت أن تخفي عني موعد وصوله، وأرادت أن تفاجئني بحضوره في مكان عملي، كغرامها الدائم بالمفاجآت، كنت أجلس وراء طاولة مكتبي أدقق في قياسات الطرق التي أجريتها الأسبوع الماضي مع طاقم المكتب الهندسي، حين أطلت كعادتها مشرقة تسبقها رائحة عطرها الكثيفة، قالت وهي تتأبط ذراع شاب طويل نحيل: أقدمه لك، عدنان، التفتت إليه وقدمتني له:

هذه مثاة صديقتي المفضلة.

تصافحنا بآلية، لكن عيوننا اشتبكت بنظرة طويلة، عجزنا عن فكها، نظرة تجسدت للحال بشكل طوق محكم، أطبق علينا ووقعنا أنا وهو أسيرين فيه، أحسست ما يشبه الصعقة وأنا أنظر إليه، أظنه عانى من الإحساس ذاته، لأنه لم يستطع إخفاء تعكر صفحة وجهه، والاحمرار المفاجئ والشديد في أذنيه، قلت ما يجب قوله: أهلاً! تفضلا بالجلوس.

كنت شاهدة على ولادة زخم من المشاعر المباغتة في نفسي لا أعرف سببها، كيف حرّض بي هذا الرجل تلك الفتن كلها؟ لماذا تزلزلت الأرض الميتة تحت قدمي؟ لماذا انهارت فجأة الحصون والحدود كلها بيني وبين هذا الغريب، فغدونا شجرتين عاريتين متقابلين غير آبهين بالرياح والصواعق، والفؤوس التي تهدد الجذوع والأغصان بالبتر. أنا التي كنت أتباهى بدقة اختياراتي، وبذلك الانسجام الموفق بين العقل والقلب، ما الذي عبث بي وهزّني هكذا؟! لاحظنا بدهشة أننا نلبس الطوق الذهبي نفسه، سلسلة ذهبية تنتهي بمكعبٍ صغيرٍ من الذهب، مكعب مصقول، لا نقوش فيه ولا رموز، ولا أحرف.

دارينا ارتباكنا بضحكة، لم أتوقع أبداً أن ألتقي بإنسان يحمل مكعبي، رفاقي كانوا يسخرون من هذا المكعب ويسألونني عن معناه؟ فأقول بغرور شارحة وجهة نظري: أنا ألبس الذهب لأنه ذهب، أحتقر أن يصير الذهب رمزاً، أي معنى لصليب من ذهب مرصع بالألماس! الصليب كان من خشب، ترى ما دلالة أن يلبس هذا الغريب مكعبي ذاته، خصوصيتي ذاتها، ألا يعتبر هذا المكعب بمثابة إشارة أو إنذار لأمور غير معلنة بعد، سوف تعلن؟

أعرب عن دهشته قائلاً: عجباً كلانا يحمل المكعب ذاته.

سألته: هل اشتريته، أم قدمه لك أحد الأصدقاء هدية؟

قال: أبداً، أنا اشتريته لأنني أعتقد أن الذهب هو الذهب، هو ذلك المعدن الأصفر الملعون، سلاح إبليس. على فكرة، لا أملك قطعة ذهب سواه.

عادت نظراتنا إلى تشابكها المعقد، ثمة طرقات عذراء تتكشف لي فيها مفاجآت رائعة، يطلعني عليها حدس أكيد، أحسست بوجهه يلتهب، ماذا لو امتدت يدي لتلامس خده ألن تسري فينا كهرباء؟! كيف تحصل هذه الأمور؟ أي قوى تسخر منا نحن الثلاثة، بل نحن الأربعة، يبدو أنني نسيت خطيبي، الذي يفترض أن أتزوجه حالما ينتهي النجار من إنجاز أثاث بيتنا.

أحضر الآذن القهوة، كان من عادتي رشف القهوة من الفنجان، وإعادته إلى الطاولة وليس إلى صحنه الأبدي، من جديد أربكتنا المفاجأة: كلانا يشرب القهوة من الفنجان ولا يعيده إلى مكانه آمناً، لماذا نقترب بتلك السرعة في حقل الألغام، غير المسموح بالدخول إليه؟ ازدادت الكهرباء بيننا، أخذ جسدي يرشح عرقاً حاراً، حدثت نفسي أنني ما عدت متأكدة من شيء، وبأن زمام أموري أفلت من يدي، أدهشني لن تكون آثار هذا اللقاء رهيبة إلى هذا الحد، لأنني بعد انصرافها أخرجت مرآتي الصغيرة من حقيبتي ونظرت في وجهي، كانت ملامحي العادية هي ذاتها، لكن وجهي ليس وجهي، فيه شيء لا يشبهني، ثمة إرهاق عميق يلوح من عيني، لكن لمعاناً غريباً يشع منهما أيضاً! أهي صعقة الحب التي أسمع عنها وكنت أسخر منها؟ ما باله خطيبي تحول بلمح البصر إلى دخان، إلى رجلٍ من ضباب، لا تربطني به علاقة عمرها سنة.

www.mlazna.com-رياح الشرق

لكن عجباً ألم أكن مقتنعة أنه اختيار عقلي وقلبي مجتمعين؟!

لماذا أشعر تلك اللحظة بأن كل شيء باطل، وبأنني لم أختر سواه، سوى هذا الغريب الذي يلبس مكعبي الذهبي الفريد، ويشرب القهوة بالطريقة التي أشربها بها، محرراً الفنجان من أسر صحنه الأبدي! دعتني صديقتي أنا وخطيبي إلى العشاء في اليوم الذي قدمتني لخطيبها، حاولت أن أسترخي طوال فترة العصر، وأعتبر أن ما أحسسته سخف ووهم، وأن خطيبي هو الرجل المناسب لي الذي خبرته طوال عام، يا إلهي ما أبرع العقل في تنفيذ الحجج المنطقية، لكن المرآة فضحتني إذ عكست لي رغبتي اللامحدودة لأبدو في أجمل صوري، عارفة بخبث المرأة الأزلي أنني أتزين لأجله هو، خطيب صديقتي.

لم أستطع مقاومة شعور الإثم طوال السهرة، كل لحظة كانت تؤكد لي حقيقة انجذابنا المدمر، هو بدوره كان يجاهد كي يحرف أنظاره عن وجهي، كانت نظراته تداعب شعري بأصابع من هواء، كان يحفظ ملامحي وشماً في ذاكرته، كي يستعيدني على مهل بعد انتهاء السهرة.

ببساطة علقت صديقتي: كنت أعرف أن مناة سوف تعجبك، قالت لي: لم يكف عن السؤال عنك.

كشفت نظرتي بشكل مباغتٍ عن حمى الحب جديد ومباغتٍ، كنت أبذل جهداً غير صادق لمقاومته، وحين عدت إلى البيت يرافقني خطيبي - كما يفترض - تركت يدي باردة فاقدة الشعور تستسلم يائسة ليده، عارفة منذ اللحظة أن الحياة لن تدب فيها بعد الآن أبداً في يد الخطيب، ولم أمانع بقوة الهزيمة أن أقدم له شفتين من حطب، كانت تلك أتعس قبلة في حياتي، أحسست

أثناءها أنني أخون نفسي، وأخون الغريب.

حاولت أن أرفق بنفسي، وأحلل بمنطق ما حصل معي، أهي جاذبية الغرباء؟ لكن ما معنى هذا الكلام؟ ألا يفترض أنني أحب خطيبي؟ لكن هل أحببته حقاً؟ أم أنني أجده زوجاً مناسباً، فالزواج ضريبة كل فتاة وشاب، وهكذا نمارسه هنا، في الأحوال كلها سأتزوجه، وستتزوج صديقتي خطيبها الذي جعل قلبي يرتجف.

دخنت سيجارة، وأنا أهدأ شيئاً فشيئاً مراقبة تبدد سحب دخانها، موحية لنفسي أن ما أحسسته ليس سوى عاصفة في فنجان، مؤكدة لنفسي المهتزة أن المخطوبين والمتزوجين كلهم يتعرضون لأشياء مشابهة، وأنه لولا الالتزام لانهارت العلاقات كلها، ولم أتروع عن تهيئة نفسي على شجاعتي بتبادل القبل مع خطيبي رغم حمى الحب المفاجئ التي أصابتني مع الغريب، لكن لماذا دموعي تنهمر هكذا بغزارة الشلال، ويرتعش كتفاي بقوة من الانفعال؟ من يقدر أن يزلزل الإنسان هكذا، سواه، الحب.

المرآة وحدها تكشف حقيقتنا، قالت لي وأنا أمسح الماكياج الذائب على وجهي: أنت عاشقة حتى النخاع.

كانت صديقتي تستعد لطقوس الخطبة، الفستان البديع الذي تخيطه عند أشهر خياط في المدينة، بطاقات الدعوة للأصدقاء والأقارب إلى حفل الخطبة في فندق، كل شيء حولي كان حقيقة، لكني لم أكن أصدق شيئاً، غادرني يقيني بكل شيء، تمنيت ألا ينتهي النجار من إنجاز أثاث البيت الذي سيجمعني مع خطيب تحول بقوةٍ سحريةٍ إلى رجل غريب لا يعنيني في شيء.

أخذت أفكر جدياً بفك ارتباطي به، لا أستطيع خداعه، سأتركه وسأداوي نفسي من حبي للغريب، من نوبات البكاء المفاجئة حتى

وأنا أقيس الطرقات في الريف، وأسجل الأرقام في الدفتر.

تكررت اللقاءات بحكم صداقتي المتينة مع صديقتي، خطيبي كان يرافقني أغلب الأحيان، وحدنا - أنا وهو - كنا نعرف تورطنا الجميل والحرج، أصبحت عيناه تحاصراني، إنه ينتظر أملاً أو تشجيعاً، وأنا أغرقه بحنان ضائع لا هدف له.

أسبوعين من العراك الضاري مع ذاتي جعلاني مقتنعة تماماً بوجوب الانفصال عن خطيبي، لكني قررت الانفصال عنه بعد أن تتم خطبة صديقتي، هكذا أرضي ضميري، وأتحرر من مشاعر الإثم شديدة الوطأة، أرضاني هذا الحل، وقررت التواري، صرت أتعلل لصديقتي بمشاغل وهمية كي لا ألتقي خطيبها، وأعتذر بالحجة الأبدية لنهاية كل علاقة حب: الصداع، لكنه فاجأني قبل موعد خطبته بأيام في مكتبي، وقف في وسط الغرفة صامتاً دون أن يلقي تحية الصباح، واضح أنه مشهد متألم، واضح أنه عاشق، أخذ قلبي يتسارع نشوة وسعادة وأنا أتأمله، همست لنفسي كم أحبه، تأمل كل منا المكعب الذهبي المعلق في عنق الآخر، مكعب صغير كان في تلك اللحظة فضاءنا المشترك، حبنا الأخرس الذي حاولنا إجهاضه، لكنه أبى أن يموت قبل لحظة مواجهة. قلت له بافتعالٍ: أهلاً تفضل بالجلوس، لماذا خطيبتك ليست برفقتك؟

رمقني بعتابٍ قائلاً: أظنك تعرفين أنني تقصدت أن أكون وحيداً، وتعرفين لماذا أتيت! فتشت عن الكلمات، يبدو أن الموقف ما كان يتحمل زيفاً ولا مجاملة، تابع كلامه بصوتٍ ضمنه الحزن: لا معنى لسفري من دونك. باغتتني جملته الجريئة: ماذا تعني، ألن تتم خطبتك؟! قال بصوت قطعي: لا، يستحيل أن تتم، إنما خسارة أن أسافر من دونك، أنا أطلب منك...

قاطعته: مهلاً، مهلاً، هل فكرت كم سنسبب جراحاً لأعز الناس إلى قلوبنا، طعنة الغدر لا أقدر عليها، لم أتخيل يوماً أن أطعن أعز صديقة إليّ هكذا، وذلك الشاب المسكين.

قاطعني: الطعنة الحقيقية ستكون لذلك الشعور الرائع الذي ولد بيننا من أول لحظة، وتأكد لحظة بعد لحظة، انظري في عيني وقولي لي لا أحبك أنصرف للحال، انسكبت دموعي تأثراً من لهجة صوته ربما، وليس من كلماته، امتدت يده تمسح وجهي برفقٍ متحسسة بشرتي الندية، قال لي وأنا مغمضة العينين تبتلعني دوائر صوته المتكاثرة:

- لا تترددي بمباركة هجرة روحك إلى حيث ترغبين.

تركت خدي يرتاح على راحته، كنت أغرق في الحنين وأنا أتساءل ما معنى حياتي من دونه.

www.mlazna.com-رياح الشرق

صفير النهاية

من - عادتي - حين أسافر - أن أسرح بنظري عبر نافذة القطار فأحس بمتعة إقلاع الأشجار والبيوت والحيوانات مع حركة القطار، وشيئاً فشيئاً أتحلل من أثقال ترزح على صدري، وتتناثر ذكريات فوضوية بعيدة وقريبة على امتداد نظري، ورغم أن خضرة الأشجار كانت شرسة هذا الصباح، وتلتمع بحدة تحت فجور الشمس السخية بلهيبها منذ الصباح، إلا أنني أحسست أنني مدعوة لأشارك السيدة التي تجلس مقابلي مع ابنتها التي لا تتجاوز الرابعة عشرة - كما قدرت - صمتها الأليم، بدا لي وجه الأم مطعوناً بحربة الألم، وملامحها تشف عن وجع إنسان مسحوق، ومن حين لآخر كانت تسحب نفساً عميقاً وتزفره على دفعات كأنها تساعد نفسها على التحرر من اختناقها، وتلتمع عيناها بدموعٍ خفيفة سرعان ما تجف، كنت أتأمل صفحة الوجه المتألم بحريةٍ من خلال زجاج نظارتي الشمسية. كنت أتعلم قراءة الوجوه، مكتشفة كيف أن الإنسان وجه، ومع هدير القطار الرتيب والخافت، كنت أستطيع وجع ذكريات المرأة المجهولة، وأغوص في ندوب روحها، أحسست أنني نقلت لها إحساسي بألمها، لأن نظرتها الشاردة حطت فجأة على وجهي، وطعنتني عيناها السوداوان بنظرة عميقةٍ، ثم ابتسمت ابتسامة قصيرة مشحونة بألم لا تعرف

كيف تسيطر عليه، وحين هممت بخرق الصمت بيننا، فاجأتنا البنية بعاصفة من الغثيان الشديد، مع إقياء مصفرٍ، أفلحت الأم في تلقيه بكومة من المناديل الورقية التي دفعتها إلى فم ابنتها.

شحبت الطفلة بشدة، وازرقت شفتاها، أصابني هلع، وجدتني أمسك بيدها البضة لتصدمني برودة أصابعها، أغمضت عينيها فيما حبات عرق بارد تنضح من ذقنها وجبينها، لم يبد على الأم الجزع، كانت تتخلص من المناديل الورقية الملوثة بأقياء الطفلة، وتنظف راحتيها من السائل الحامض المصفر. ثم أخرجت من حقيبتها زجاجة عطر رخيص تنشقه للصغيرة التي عاودها الغثيان حين تنشقت العطر، فقالت لها بنزقٍ: أبعدي هذه الزجاجة عن أنفي. سألت برقة الأم: يبدو أن الصغيرة تشكو من دوار السفر، لو أحببت أعطيها دواءً مضاداً للدوار فأنا... قاطعتني الأم بلهجةٍ ساخرةٍ:لا، أشكرك، أنها لا تشكو من دوار السفر.

كان شحوب الطفلة يزداد، تأملت وجهها النضر الطفولي بحاجبيها المقفلين الكثيفين وأهدابها الكثيفة السوداء وعينيها نصف المغمضين ويديها المشبوكتين على بطنها، تنبهت لأظفارها المقروضة بلا رحمة، حتى لم يبق من كل ظفر سوى هلال صغير يدل على منبته، وجدتني أتساءل: أتراها مريضة مرضاً مزمناً؟ ألهذا السبب لم يبد على الأم القلق حين تدفق إقياؤها؟! لكن أي مرض لئيم يعشش في جسد هذه المراهقة؟ حاولت أن أفر بنظري من النافذة وأن أتسلى بتقافز ذكرياتي أمام ناظري، وعلى خلفية رائعة من الأشجار المتعانقة، لكن هواجسي كانت تحوم حول المرأة وابنتها.

فجأة انفلتت آه عميقة من أعماق الطفلة المتلاشية، التفتت

أمها إليها ورتبت باكية على كتفها، وهي تقول بصوت يشرخه الحزن: اصبري يا ابنتي، سنصل بعد قليل، تحملي قليلاً.

أنت الصغيرة وهي تقول: لا أستطيع أحس أنني سأتقيأ من جديد.. لم أستطع أن أمنع نفسي عن اقتحام مشهد الألم بين الأم والطفلة فقلت: خير يا صغيرتي، مم تشكي؟ هل أستطيع أن أساعدك بشيء؟

ردت الأم: معدتها تؤلمها.

سألت: ألا تتناول دواء ما؟

أجابت الأم: لا!

فجأة داهمني شعور كم أنا معنية بالأم وابنتها، كنا نحن الثلاثة داخل قفص الألم. وثمة جرح قاسٍ أخذ يتوهج في وجه البنية، وحين فتحت عينيها، رمقتني مطولاً بحدة، ثم لانت نظرتها وأخذت ترنو إليّ بعينين صافيتين عسليتين، هالني الحزن العسلي المتدفق من عينيها، شحنت تعاطفي وأمومتي كلها وسكبتها في عيني، وغسلت بنظرتي وجهها المتعب، وجدتني أفتح حقيبتي وأقدم لها دون تردد الهدية التي كنت أحملها لابنة أخي التي تماثلها في العمر، سوار من الفضة المنقوشة برسوم هندسية من اللونين الأخضر والأحمر، فاجأتها الهدية وترددت في قبولها، لكني لمحت سعادتها التي شعَّت من حزن عينيها، رجوتها أن تقبلها ونظرت إلى الأم نظرة تعني أن تطلب من ابنتها قبول الهدية.

لبست الطفلة السوار، وبرمتها في معصمها النحيل بغبطة، فجأة انهارت الحدود بيننا نحن الثلاثة، نسينا أننا غرباء، وأن المصادفة وحدها جمعتنا في قطار، بدا لنا القطار مكان بوح الأسرار العميقة، تشابكت نظرتي مع نظرة الأم فتعرى جرحها الدفين، سقطت دمعة

كبيرة من عينها اليسرى، وهي تتنهد: والله أنت ابنة حلال، أشكرك على الهدية، ولكن... اختنق صوتها، وجدتني أقرب وجهي منها وأقول لها بتصميم: أرجوك تكلمي، ما الذي يوجعك، ممَّ تشكو ابنتك؟ يبدو أنها هي نفسها دهشت من البساطة التي باحت بها بسر حياتها، بجحيم حياتها على الأصح، قالت بصوتٍ مشروخ بالألم: إنها حامل، وشحذت من الأصدقاء تكاليف هذه الرحلة لأجهضها. ضحكت ضحكة جافة قصيرة، وأردفت: طبعاً لا يمكن إجهاضها في المدينة نفسها، وإلا لاحقتنا الفضيحة مدى الحياة.

كانت الطفلة تتلهى بتأمل نقوش السوار، سمرت نظري على وجهها العذب وتساءلت: أهذه الطفلة حامل حقاً؟! كانت غائبة عن الحديث، كأنه لا يخصها، ولم يبد عليها أي حرج من كلام أمها، شردت نظرتها عبر النافذة، وكأنها أجفلت من مشاهد عرضتها أمامها ذاكرتها، إذ سرعان ما ارتد نظرها إلى نقوش السوار بعد أن هزتها رعدة، ترى ما الذي رأته في ومضة النظر أو ومضة الزمن هذه؟ ما الذي جعلها تتقصف من الذعر والتقزز هكذا؟ يبدو أننا نفضل البوح بجراحنا للغرباء، فهم لا يدينوننا، ولا يصلبوننا بأحكامهم، إنهم كالأموات، يغادرون دافنين معهم السر هذا ما أحسسته حين تابعت الأم كلامها معي ببساطةٍ وقالت: المصيبة يا بنت الحلال، أن الجاني والدها.

انقضت عليّ هذه الكلمة كما لو أنني وجدت رأسي فجأة في فم الغول، هوى قلبي وسقطت نظرتي والتصقت بيدي الصغيرة المتشابكتين فوق بطنها، فوق رحمها الصغير الحامل بالإثم. انفلتت مني جملة دون وعي مني:

- هذا الحقير، يستاهل الإعدام، يا له من حيوان.

قالت الأم بلوعة: لا تظلمي الحيوانات، فهي ترأف بأولادها.

قلت وقد دخلت بحالة من هيجان الانفعالات: ولماذا لا تشكينه؟

تنهدت قائلة: والفضيحة، وأولادي الستة، هل أرميهم في الشارع؟

- لكن هذا الأب، خطر على أولاده، إنه يدمرهم.

قاطعتني: لا تكملي أرجوك، ما باليد حيلة، إنه يملكنا، يتصرف بنا كما لو كنا عبيداً عنده.

- لكن كيف تستطيعين السكوت، كيف؟

قالت بذل الانكسار: وماذا أفعل، إنه يهددنا برمينا في الشارع لو تفوهنا بكلمة، الأمرُّ من ذلك، أنه يعتقد أنه يملك الحق في أن يتصرف بنا كما يشاء.

صار المكان مجروحاً، وبدت سكة القطار كجرح كبير لانهاية له يحرث وقلبي معاً، كان جسد الطفلة منتهكاً ومستباحاً، وأحسست برائحة العطر الرخيص التي نثرتها الأم في الجو هي رائحة الموت الحريفة، كنت محاصرة بسؤال ملح: ماذا سأفعل؟ كنت أمتلئ حقداً دقيقة بعد دقيقة، كنت عاجزة عن فهم ضعف الأم، أي ضعف إنساني هذا؟ كيف تسكت؟ وهل لقمة العيش تضطر الإنسان للسكوت عن الجرائم؟ أغفت البنية، وأطرقت الأم تتأمل في قاع حياتها الآسن الذي يسود فيه سفّاح حقير اسمه الأب.

انغلق علينا الصمت فجأة، لينفتح بيننا حديث الأعماق الذي

لا يحتاج لكلمات، كانت مخيلتي تعذبني بخلق صور مبهمة لانتهاك طفلة من قبل والدها، ثم صورها وهي مخدرة بين يدي طبيب يخلصها من الإثم، لم أنتبه أن دموعي كانت تسيل وأنا أطيل تأمل وجه الطفلة الغافية، كان تورد وجنتيها قد عاد، وارتسم القلق على وجهها ملتصقاً بقوس حاجبيها المقفلين، كانت شفتاها النديتان ترسمان نصف ابتسامة. ونبهني إيقاع تنفسها الرتيب لنهديها الصغيرين.

كنت أبذل جهداً لأمنع نفسي من الصراخ، نسيت سبب سفري، آمنت أن القدر شاء أن يضعني في مقصورة قطار مع جرح طازج. في الخارج بدت لي الأشجار تشيخ وتتهاوى، والأوراق الخضراء تيبس وتتساقط على مهل، كل شيء حولي بدا مهزوماً ومنتهكاً... كنت متخمة بالألم الذي ضخمه هدير القطار، حين شع قراري فجأة، سأقتحم حياة تلك الأسرة وأكون يد القدر التي تحاول أن تلحم وتشفي.

www.mlazna.com-رياح الشرق

الساقطة

بعد أكثر من ثلاثين عاماً، تتجسد أمامها صورة والدها مسجى في التابوت ببذلته السوداء الأنيقة وقد تصالبت يداه فوق صدره، لقطة يستحيل أن تمحى من ذاكرتها، بل إنها تشعر أن هذه الصورة تتبلور أكثر كلما تقادم الزمن عليها، تنبش هذه الصورة من أعماق ذاكرتها لتحس بدفء وعزاء عجز الأحياء كلهم عن توصيله إليها، إنها تعي تماماً كيف ارتبط القرنفل بالموت، فحين اقتربت من التابوت متحدية أمها لتطبع قبلة أخيرة على وجه أحب إنسان إلى قلبها، أحست أن القرنفل يذيع رائحة الموت، استندت بمرفقيها على حافة التابوت وتدلى جذعها النحيل قليلاً ليطبع أعظم قبلة حب على جبين الأب الذي لم يعد بإمكانها أبداً أن تناديه بابا.

صدمتها برودة الجثة، شهقت ألماً وهي تتلقى الصفعة الأولى من يد الموت المثلجة، وأبعدتها النسوة الغارقات في السواد جانباً، وأمرتها أمها أن تلزم غرفة النوم مع أخيها وأختها اللذين يصغرانها، أذعنت للأوامر وهي تشعر أنها آلة تنفذ ما يطلب منها كان أخوها في الخامسة وأختها في الثالثة، جلست وسطهما وأطعمتها وجبة الغداء التي تبرعت بها إحدى الجارات، وراقبتهما بعينين تطفحان بالحزن كيف يأكلان بشهية، كانت في العاشرة من عمرها تتلقى بصبر صفعة الحياة الأولى، وحين طلبت منها أختها أن تحكي

لها حكاية علاء الدين وحبيبته ست البدور داخل السبع بحور استجمعت قواها وبدأت تحكي بصوتٍ مرتعشٍ، أخذ يتشقق أكثر فأكثر، حتى اختفى متحولاً إلى حين كانت تقول، طار طار، كانت تتخيل أن والدها يطير مبتعداً وليس علاء الدين ويستمر في طيرانه حتى يصل إلى خط المدى حيث يتعانق البحر مع السماء، كانت تعتبر هذا الخط نهاية العالم وتسأل والدها وهي ترنو بافتتان إلى ذلك العناق الشفاف: بابا أليس هذا الخط آخر الدنيا؟ يضحك والدها وهو يداعب جديلتها الطويلة ويقول: لا يا حنان، العالم كبير، كبير.

بكى أخوها حين قالوا له إن البابا صار ملاكاً في السماء، وفي أوقات متباعدة حين يباغته شوقه الطفولي لأبيه، كان يقول: أريد أن أصبح ملاكاً، لكن المدرسة أنسته البابا، أما الصغيرة فصارت لا تنفصل عن حنان، أحست أنها تتحول لأم مذ كانت في العاشرة، كانت تطعم أختها، وتحممها، تحكي لها قصصاً، وتخيط لدميتها ثياباً، الأرملة الشابة كانت في عالم آخر، غافلة عن أولادها، يرعبها المستقبل الأسود الذي ينتظرها بعد أن فقدوا معيلهم، كان التعويض الذي دفعته الشركة للمتوفى لا يكفي لشراء الخبز لأسرته، كيف عليها أن تدبر أمرها؟ وبعد فترة وجيزة تزوجت رجلاً في الستين معتل الصحة، الصفقة صريحة، تهدي له شبابها وسنيها السبع والعشرين، مقابل أن يعيلها وأطفالها.

الحزن أكسب الأم القسوة، لا يمكن لحنان أن تنسى ذلك اليوم الذي خاطبتها أمها بخشونة دون أن تنظر إليها قائلة: سوف أتزوج عمو كمال يا حنان.

شهقت الطفلة، وقالت بسذاجة: عمو كمال صديق جدي!

زجرتها أمها قائلة: اسكتي، سيكون بمثابة والدك وعليك طاعته ومحبته.

في تلك الليلة امتصت الوسادة دموع الطفلة التي رددت حتى هدّها الإعياء وأغفت: لن يكون بمثابة والدي أبداً.

كان "عمو كمال" رجلاً طيباً محباً، وكريماً، يملك مطعماً شعبياً يدر عليه ربحاً معقولاً، وكان متيماً بزوجته الشابة التي تفشل غالباً في إخفاء نفرها منه رغم الجهود الجبارة التي تبذلها للتقرب منه، ذات يوم سمعت حنان أمها تهمس للجارة: المحبة من الله، لا أطيقه، الله يلعن الفقر الذي أجبرني على الزواج منه، تنهدت ثم تابعت: من حسن الحظ أن السكري أفقده شيئاً فشيئاً رجولته، وسكتت الأم حين لمحت حنان.

في ذلك الزمن، لم تكن حنان تعرف ماهية العلاقة الزوجية، لكنها كانت تتعاطف مع عمو كمال الطيب، الذي أحب أولاد زوجته كما لو كانوا أطفاله، وكانت تحس بألم من قسوة أمها وجفائها مع الزوج اللطيف، لم تكن تعرف أن نار الأهواء تغلي في صدر الزوجة الشابة وأنها منقوعة في يأسها بلا عزاء، كان حدسها الطفولي يدلها كيف أن جو البيت مشحون بالتوتر إلى أن حدث الانفجار بمجرد تفصيل تافه.

كانت ليلة عاصفة من ليالي كانون حين دخلت الجارة تحمل الكستناء لتشويها على المدفأة، وتقضي السهرة مع الزوجين الكئيبين، الحسناء التي تحرقها أهواؤها، والعجوز المريض المتيم حباً والذي ينتظر الفتات، كانت حنان تنتحي زاويتها المفضلة وتدرس للشهادة الإعدادية، حين ذكرت الجارة عرضاً، إن ابن أخ زوجها رحمه الله، تعرض لحادث سيارة ونقل إلى المشفى، ولم تكد الجارة

تكمل كلامها حتى انتفضت الزوجة العاشقة وقد شحبت وتسارعت أنفاسها وأعلنت بتهورٍ أنها ستزوره حالاً، لم تبالِ بنظرات الانكسار ولا برائحة ذلك الحب الآثم الذي لم يعد يعنيها أمر انكشافه، لم تكلف نفسها خلف نار المدفأة التي لا تعادل نار حب أمها للشاب الذي يصغرها بأعوام. لم يكن بإمكانها أن تفهم أبداً موقف أمها هذا، إلا بعد مرور أربعين عاماً على وقوعه، إنها الآن امرأة في الثالثة والخمسين، في الواقع لم تكن تهتم إن كان الشخص يستحق حبها، كانت تتدفق محبة مع كل من حولها دون أن تنتظر مقابلاً، حتى النباتات تعاملت معها بحبٍ، إنها الآن في خريف العمر تفهم الذي اعتمل في قلب أمها منذ أربعين عاماً ليقذفها من بيتها الآمن إلى غرفة في مستشفى تضم شاباً تحبه حتى النخاع، لا يمكن للإنسان أن يفهم الحب إلا حين يتأجج قلبه بالحب.

مرت سنوات حياتها أمامها كشريط باهتٍ مشوشٍ، مات الكهل الطيب، وتزوج عشيق أمها من صبية تصغره بسنوات، انكفأت الأم العاشقة تداوي جرحها وتلعن حظها العاثر، معتمدة على ابنتها البكر في تحمل مسؤولية إخوتها، تفاقمت كآبة الأم، حتى اضطرت حنان لاستشارة طبيب نفساني، يومها كانت حنان قد حصلت على الشهادة الثانوية والتحقت بمدرسة لإعداد المعلمات للمرحلة الابتدائية، لم يعد مورد المطعم الشعبي يكفي لإعالتهم، وخصوصاً بعد أن استولى إخوة العجوز على معظم مدخول المطعم، كان على حنان أن تعمل بنشاط النحلِ وجَلَدْ النمل لتعيل أسرتها.

تخرّجت معلمة بدرجة امتياز وأغرقت نفسها بالدروس الخصوصية، كانت تلهث لتواكب طلبات الأسرة، أدوية أمها النفسية

الغالية، مصروف أخيها الذي لا يرضى أن يلبس رفاقه أفضل منه وأختها التي تريد جهازاً يليق بعريس المستقبل. استحالت حنان إلى أنثى من لطف وحنان، زوجت أختها بعد أن قدمت لها حصيلة ما ادخرته طوال أربع سنوات من الدروس الخصوصية، الأخت اعتبرت أن قدرها أن تأخذ، وقدر حنان أن تعطي، المحزن أن حنان آمنت بهذه الحقيقة أكثر من أختها، ماتت الأم غارقة في مستنقع كآبتها بعد أن عجز الطبيب النفساني عن علاجها، وتزوج الأخ المدلل من فتاة مريضة بالغيرة، كانت تتشاجر مع زوجها كل يوم وتتهمه بأنه يغازل السيدات اللاتي يصففن لهن شعورهن، كان على حنان أن تمتص شجار الزوجين كل مرة، لكن الزوجة العنيدة أصرت أن يعمل زوجها في مهنة أخرى لا تتطلب احتكاكه بالسيدات، وأخذ ينتقل بين مهنٍ كثيرة يتركها بعد فترة وجيزة معتمداً على أخته المكوكية التي تضع تحت تصرفه كل قرش تدخله.

كانت حنان تعرف كم هي دميمة، ولم تؤلمها هذه الحقيقة لأنها لا تملك الوقت لتشعر أنها أنثى، إنها تهدس بأولاد أخيها الثلاثة، الذين تناديهم ماما، كانت أمهم التي لم تلدهم وكانوا ينامون على مرضهم ودراستهم وتحيك لهم الكنزات الجميلة، ولم تخجل طوال عشرين عاماً من العيش المشترك مع أخيها وأسرته من الاعتراف بأنها حالياً لا يوجد في حقيبتها أكثر من خمس ليرات.

زجت نفسها في ديون كثيرة للحصول على المال، لشراء التلفاز الملون أولاً، ثم الغسالة الأوتوماتيكية لزوجة أخيها، ثم براد جديد بدل البراد القديم، ثم أقساط غرفة النوم للأولاد، آمنت أنهم جميعاً من مسؤوليتها ولم تلم أخاها يوماً على نزقه وأنانيته كونه

www.mlazna.com-رياح الشرق

لا يثبت على مهنة معينة، فمن بلاط إلى نجار إلى دهّان... تلك المهنة التي استقر عليها أخيراً لكنه لا يمارسها إلا بمزاج، وحدها الدورة الشهرية كانت تذكرها أنها أنثى، وأحياناً يتناهى إلى سمعها صوت عناق وشهقات من غرفة أخيها فتحس أنها تنكمش وتتكور كحلزون داخل قوقعته تحكم الغطاء حول نفسها وتدفن جسدها في الفراش مستنجدة بالنوم.

كل يوم مرّ في حياتها كانت تفرغ ذاتها كلياً لمن حولها، صديقاتها في العمل فهمنها بأنها الإنسانة التي لا تطلب شيئاً لنفسها وكن يصدقنها ويرهقنها بمشاكلهن فتصغي إليهن وتخفف أحزانهن وخيباتهن العاطفية، لم تعرف كيف تحولت من مراهقة إلى امرأة في الثالثة والخمسين.

عاشت عمرها على إنكار الذات، وآمنت أنها تحب أن تكون الحائط المتين الذي تستند إليه الأسرة، تذكر ذلك المساء حين عاد أخوها يغلي من الغضب بسبب غلاء الزيت، وعدم تمكنه من شراء مؤونة السنة منه، لم يغمض لها جفن، ومع شفافية الفجر الأولى سحقت كرامتها وقررت طلب سلفة من طالباتها الثريات لشراء الزيت، ولم يحن العصر حتى كانت تحمل بنفسها خمسة عشر كيلو غراماً من الزيت ومن أجود الأنواع وهي تبتسم لأخيها، لم يكلف نفسه أن يسمعها كلمة شكر واحدة، ولا أن يرد على ابتسامتها بابتسامة، لكنها لم تشك بطيبة أخيها الذي يعتبر أن هذا واجب العانس الدميمة.

يومها نامت والابتسامة ترفرف حول وجهها، وحين أهدت إليها إحدى طالباتها الثريات غطاء من الصوف رائعاً، لم تتردد لحظة في تقديمه لزوجة أخيها بمناسبة عيد الأم، قبلته الأخرى

وكأنه حقها، وكم قاومت حنان وخزة الألم حين سمعت زوجة أخيها تهمس لزوجها قائلة: وماذا ستفعل أختك بهذا الحرام الرائع، وهي عانس لم تدخل دنيا.

كانت سعادة حنان أن يستدفئ بها الآخرون، لم تفكر يوماً بتدليل نفسها، تعاملت مع ذاتها كعدوة، تجاوزت نفسها ولم تقدم سوى الضروري، وحين احتاجت للاستعانة بنظارة للقريب للقراءة، اختارت أرخص إطار للعدسات، بينما قدمت لابن أخيها ثلاثة أرباع راتبها لأنه يريد أن يتباهى بإطار عدساته! كانت سعيدة للغاية وهي ترى فرحته الأنانية.

ذات يوم قالت لها صديقتها: إنهم يمتصونك، ولن تجدي الخير منهم.

ضحكت وشعت الطيبة من وجهها المحفور بتجاعيد خطها التعب والسهر طوال سنوات، قالت: إنهم مساكين يحتاجون لمن يساعدهم.

- يا لك من بلهاء كيف ترضين أن تتنازلي عن حصتك من بيت أهلك لأخيك؟

نظرت إلى الصديقة بذهول وقالت: لِمَ لا، أخي صاحب عائلة، لديه ثلاثة شبان، كيف سيضمن مستقبلهم؟

- لكن أختك المتزوجة لم تتنازل عن حصتها، برغم أن زوجها ثري؟

- إنها حرة.

- وأنت، ألا تحتاجين لضمانة لشيخوختك، إذا مرضت لن يكفيك راتبك التقاعدي ثمن دواء، هل تتخيلين أن زوجة أخيك

وأولادها سيعتنون بك؟

- أتخيل ذلك، لقد كنت معطاءة معهم، لذا...

- يا لك من مغفلة، ألا تعرفين المثل: خيراً لا تعمل، شراً لا تلقى.

كانت تبتسم بصفاء لا يتأتى إلا من ضميرها المرتاح، ونقاء روحها. لم يستطع شيء أن يعكر ثورة المحبة في روحها، لا الفقر، ولا الحرمان العاطفي والجسدي، ولا توالي السنوات وهي تعمل كآلة. كانت وسيلتها الوحيدة للتخفيف من انتقاد صديقتها وفظاظة زوجة أخيها هي الفكاهة اللطيفة، إنها تفتعل إضحاك نفسها لتخفف من وطأة الأيام وثقلها على روحها، التي لا تعطيها الحق أن تئن. كانت تمتص بكل طيبة تعليقات صديقاتها الساخرات: إيه ألم يلمسك أحد؟ ألا تعرفين رجلاً؟ ألم يطلبك أحد للزواج؟ كانت تشعر بالخجل والدونية كون أي من الرجال الذين وضعهم القدر في طريقها لم يفكر بالزواج منها، ترى ما السبب؟ كانت تقلب الاحتمالات بذهنها ولاتصل سوى لنتيجة واحدة، هي أن الكل يلاحظ أنها ليست ملكاً لذاتها، بل لهم، فلذات أكبادها، كيف تتركهم لأم أنانية، وأب لا يعي مسؤولياته، كيف تتركهم ونظرات الحرمان في عيونهم تلاحقها؟! لا تستطيع، قدرها أن تكون جسراً يطأه الآخرون، إنهم أولادها، هذا ما تحسه، أيعقل ألا يعتنوا بها حين ستطاردها الحياة وتهدها الشيخوخة؟ كانت في أوقات متباعدة تتساءل ما هو الرجل؟ فتحس بشوق غامض مبهم، ماتت حاجتها لنصفها الآخر مع تعاقب الأيام، أليس الزمن مقبرة للشهوات؟ لم تحلم يوماً أن تكون بين أحضان رجل، إنها كائن لا جنسي ماكينة عمل، إنما بقلب يخفق أبداً بالحب.

أكان قدرها أن يتأجج قلبها بالحب وهي في الثالثة والخمسين، كان يماثلها بالعمر، قريب لإحدى صديقاتها، التقته مصادفة أثناء زيارتها، ولأنه خصها بنظرةٍ طويلةٍ، أحست أن كيانها في العمق يتزلزل، أحست بتفجر ينابيع متدفقة في روحها لم تتبين طبيعتها، حتى وجدت نفسها تعي شيئاً فشيئاً أنها أنثى، لم يخصها بالحديث، لكنه كان يطيل تأملها ولأول مرة تشعر بنملٍ في راحتيها وتتذكر أن لديها نهدين عذراوين، سربلهما جو من الألفة، لا يوجد إلا بين صديقين يكنان لبعضهما مودة كبيرة عمرها سنوات. تكررت اللقاءات، عرفت أنه قضى عشرين عاماً في السجن، وأنه يحاول أن يجد لنفسه مكاناً في الحياة خارج القضبان. كان يأخذها بين ذراعيه الدافئتين وهو يقول: الوحدة هي السجن، وحده الحب يحررنا من السجن.

كانت تدهش لماذا تبكي في كل مرة يأخذها بين ذراعيه، بكاء صامتاً دون أن يعكر وجهها، كانت تحس أن الدموع تنزلق مذيبة تعب سنوات طويلة. فاحت رائحة الحب الحرام بين خريج السجون وبين المعلمة الدميمة، مدهما الحب بتهور المراهقين، ولم تكن تبالي بالتعليقات اللاذعة حين تزوره في غرفته الحقيرة في حي شعبي. هددها أخوها بطردها من المنزل لأنها تشوه سمعة العائلة، حتى صديقاتها نبذنها، كانت تقرأ إدانتها في نظراتهن، وتحس أنهن يرغبن بتعليق آثامهن عليها.

لأول مرة تندم لماذا تنازلت عن حصتها في البيت لأخيها، كانت تعرف أنها لا تملك شيئاً سوى أن تحيا هذا الحب، وكانت تسأل روحها بألم: لماذا نبذني الناس، لأنني أحببت؟ ترى ألا يحق لقلبي أن يخفق؟ كان يمكن أن تفهم قسوة الناس معها ما عدا

موقف ابن أخيها البكر، إنه ابنها الذي لم تلده، والذي ربته حتى غدا شاباً، فاجأها وهي تنعطف داخل الزقاق الذي ينتهي بالبيت القديم الذي يسكن حبيبها في إحدى غرفه، اعترض طريقها وعيناه تقدحان شراً قائلاً: إلى أين؟ لم تستطع أن تواجه الأذى في عينيه بالمثل، إنها تحبه رغماً عنها.

قالت: أتتبعني؟

قال: إنسانة ساقطة مثلك يجب أن أربيها.

صعقها كلامه، فغرت فاها وهي تردد: غير معقول، أمسكها من ساعدها بقبضته الحديدية وقال:هيا إلى البيت.

دفعته من صدره وهي تقول بحزم: ابتعد من طريقي، لا علاقة لك بي.

هوت صفعة مدوية فوق خدها، جعلتها ترنح وتفقد توازنها للحظات، ولولا قربها من جدار عتيق أسندها، لكانت سقطت أرضاً، فوجدت نفسها تصرخ بلوعة: أتضربني يا كلب، لحم أكتافك من تعبي، تقرحت معدتي من شرب القهوة، وأنا أدور من بيت إلى بيت أدرس التلاميذ لأقدم لك المال لتشتري حذاء إيطالياً وبيجامة رياضية، ونظارة شمسية، من درسك دروسك يا نذل حتى حصلت على الشهادة الثانوية بمجموع ممتاز؟ أتضربني، أتجرؤ أن تمد يدك على عمتك! تجمهر البسطاء حول الشاب الأنيق مفتول العضلات، والعمة الخمسينية البائسة، رفعت عينيها الدامعتين لتطالعها وجوه ذابلة بدت كأنها مرسومة على سطح ماء، سأل رجل خرج من قلب الجمهرة: خير ما القصة؟

قالت وهي تلمح الذعر في عيني ابن أخيها: لا شيء، أبداً، لاشيء، مجرد سوء تفاهم.

استجمعت قواها وطلبت من الناس أن ينفضوا، قالت: مجرد سوء تفاهم كما قلت لكم بين أم وابنها.

سمعت تعليقاً ساخراً: لم نر ابناً أمه من قبل. انسحب ابن أخيها بخطا واسعة، تاركاً إياها وحيدة تلملم ذاتها المبعثرة في الزقاق، أغمضت عينيها هاربة من المكان وناسه، تحت أجفانها ارتسمت صورة والدها مسجى في التابوت وقد ضمّ باقة من القرنفل الأبيض بين يديه، كان وجهه الأقرب إلى روحها، أمكنها أن تحس في رقاده وفي إغماض عينيه أنه يباركها ويشجعها على عيش ثورة الحب الذي لا قيمة للحياة من دونه.

www.mlazna.com-رياح الشرق

حرمة القرارات

قبل نهاية الدوام بساعة، تلقت الممرضة سعاد ورقة رقيقة بمساحة راحة اليد من الآذن الذي كان يحمل دفتراً كبيراً دفتاه من الورق المقوى السميك، وأشار إليها دون أن يتفوه بكلمة أن توقع، وقّعت سعاد وهي تبتسم، وقد طوت الورقة في يدها دون أن تقرأها، كانت أميل الانشراح قبل أن يدهمها الآذن بورقته، وسبب انشراحها الوحيد أن نهاية الأسر قاربت على الانتهاء، والأسر يعادل في ذهنها الدوام، ثماني ساعات تظل سجينة غرفة ضيقة لها جدران من الإسمنت، وآخران من الزجاج، إنها غرفة الممرضات في القسم الداخلي - رجال، كانت سعاد واحدة من تسع ممرضات مفروزات لقسم الجراحة - رجال، سمراء جذابة، أم لطفلين تجرهما وراءها دوماً إلى حضانة المشفى، وزوجة لرجل يتغيب دوماً عن المنزل بحكم عمله سائقاً في شركة من شركات النقل الخاصة.

لم يتبلبل ذهنها إطلاقاً حال تسلمها الورقة، إذ من العادة استلام أوراق مشابهة فيها تعليمات معينة متعلقة بالعمل، كملاحظات تخص طعام المرضى، أو نظافة المراحيض، التي كانت سعاد تراهن زميلاتها أنها لو رأت يوماً مراحيض المشفى نظيفة، ولا يحس المار على بعد أمتار منها بالغثيان والاختناق، فإنها ستعتبر

هذه الظاهرة من عجائب الدنيا السبع، وستدفع راتبها كاملاً وتوزعه على الشحاذين، وكانت زميلاتها يضحكن وهن يوافقنها بأنها لن تضطر أبداً لتبديد راتبها. كانت الورقة التي تسلمتها سعاد رقيقة وشفافة، أشبه ببشرة طفل، لكن ما إن قرأت سعاد السطرين فيها حتى انقض عليها ذعر كثيف واختلج كيانها، لكأنه ينفض عنه بلحظة جملته العصبية المسالمة منذ دقائق، ويستبدلها بأسلاك كهربائية يمر بها توتر عالٍ من الخوف، وخلال دقائق كانت تبكي من الخوف.

كانت الكلمات المكتوبة في الورقة تبدو لطيفة، بل أحست أن فيها شيئاً من غزلٍ، وكان النص تحديداً: بناء على مقتضيات المصلحة العامة تقرر نقل الممرضة سعاد حسينو من المشفى الوطني إلى مستوصف الشاطئ الأزرق.

تهاوت في مقعدها، وأعادت التحديق في الورقة بعد أن فركت عينيها بقوة بيديها، تساءلت متشككة متألمة أن تكون قد أخطأت القراءة، لكن الورقة المستسلمة في حضنها تؤكد لها أنها هي المعنية بقرار النقل، وأحست بغيظٍ فظيعٍ وأنظارها تستقر فوق مصطلح، بناء على مقتضيات المصلحة العامة. يا إلهي يا إلهي، هكذا أخذت تستنجد بإله ليس معنياً لا من قريب ولا من بعيد بالقرار الذي جعل سعاد تتهاوى.

كانت زميلاتها يستعدن للانصراف، يبدلن ملابسهن، وينزعن (شحاطاتهن؟) ليلبسن أحذيتهن الرخيصة من النايلون وقد مالت كعوبها وتلوثت بالطين، ولم تنتبه أي منهن أن سعاد متهاوية ومنكوبة في مقعد من النايلون أعيد ترميمه سبع مرات، وتسبب بسبب عمره المديد في سقوط العديد من الممرضات أرضاً، مخلفاً

رضوضاً تتراوح بين سحبات وكدمات ومرة واحدة سبب كسراً في ذراع ممرضة، لأنها استندت بثقلها كله إلى ذراعها أثناء سقوطها ووجه لها اللوم: كيف ترخين ثقلك كله على ذراعك، أما الكرسي الخالد فلم يوجه له أحد أي لوم! ما زاد من عذاب سعاد أنها لم تفهم سبب العقوبة، فهي لا تخل بالنظام، ولطيفة مع الأطباء كلهم كطفل وديع، ورقيقة مع المسؤولين كغنمة، فما سبب هذه العقوبة المجحفة؟

تحاملت على نفسها وقصدت رئيسة التمريض لتتبين سبب تلك العقوبة الفظيعة، ولم تستطع أن تتخيل أنها ستنتقل فعلاً للعمل في مستوصف يبعد عن أبعد طرف في المدينة أكثر من نصف ساعة في السيارة، وأنها ستنتقل من باص إلى باص...، والصغيران أين ستتركهما، وهل يعقل أن تصحبهما معها إلى المستوصف، وتجرهما من باص إلى باص، وعادةً المستوصفات ليست مجهزة لحضانة الأطفال، وقد يمنعها مدير المستوصف من اصطحابهما، يا إلهي كيف تنزل المصائب هكذا فجأة على الإنسان؟! لو أنها تنزل بالتدريج أما كان أفضل؟ هذا ما كانت تفكر به سعاد وقدماها تقودانها بآلية إلى غرفة رئيسة التمريض.

كانت رئيسة التمريض امرأة جميلة معتدة بنفسها إلى حد الغرور، تقارب سعاد في العمر، كلتاهما في عقدهما الثالث، وكانت الرئيسة ترشف القهوة مع ثلاثة من الأطباء، وهي تحس بالثقة والاعتزاز كون مكتبها يعج دوماً بالأطباء يتجاذبون معها أطراف الأحاديث، والمواضيع المتعلقة بالمشفى وخارجه كلها، وبآخر أخبار نجوم السينما، ونجوم كرة القدم، وأحدث الفضائح الاجتماعية، والتلذذ الطبيعي بالمصائب التي تحل بالآخرين، ولكن

وعلى مدار سنوات لم يخطر ببالِ أي منهم أن تكون إنسانة مثل سعاد موضع حديث أو اهتمام! حين دخلت سعاد غرفة رئيسة التمريض، كانت مبللة بالخجل، وكانت تتمنى لو تتمالك وتطلب إليها أن تتحدثا على انفراد، لكن الرئيسة شملتها للحال بنظرة قاسية وهي لا توحي إطلاقاً بالخير: خير يا سعاد، قالتها بصلفٍ وشماتة.

تحاملت سعاد على نفسها وقالت بصوتٍ أدهشها كم هو واهٍ ومريض: موضوع خاص.

أجابت رئيسة التمريض بصوت حازم أقرب للصراخ: يمكنك التحدث أمام الأطباء، فهنا لا توجد مواضيع خاصة، لا أسرار في المشفى يا سعاد.

ابتلعت سعاد الإهانة كعادتها في ابتلاع إهانات كثيرة، وقالت لنفسها تمازحها في أوج إحساسها بالألم: والله لم أتعلم في عملي سوى ابتلاع الإهانات، وخرج صوت سعاد غريباً مرتشحاً بالألم والقهر: بالنسبة للورقة... واختنق صوتها.

قالت رئيسة التمريض بصوتٍ جهوري وهي تنظر إلى الأطباء كأنها تحتاج إلى جمهور يصغي إليها وقالت: تصوروا منذ أشهر دهمتها تحيك الصوف، ما رأيكم بمنظر ممرضة تنتحي كرسياً في غرفة الممرضات وتحت إبطيها سنارتان، وعلى الطاولة أمامها طابة صوف، وهي تحيك كنزة، يا لاحترام العمل! أنذرتها أول مرة، حذرتها أنني لو رأيتها مرة ثانية، ستندم، ولن تكون العاقبة سليمة.

تشوش صوت رئيسة التمريض في أذني سعاد، وفرت أنظارها من النافذة، لا، لم يكن الأمر كما وصفته الرئيسة، لقد عاقبتها

يومها، بحسم 5٪ من راتبها لمدة ستة أشهر، راتبها الممسوخ أصلاً، وانتزعت منها الكنزة التي كادت تنتهي من حياكتها لابنها الصغير، كانت كنزة العيد، وقد طرزت على صدرها صورة أرنب يقضم جزرة، آه، لكم عذبتها أذنا الأرنب، لكنها أصرت أن تنجح في حياكته، ليفرح الصغير، وأبدعت أصابعها أخيراً صورة أرنب رائع، كان يمكن للصغير أن يجن فرحاً وزهواً بسترته، لولا أن رئيسة التمريض سحبت الصوف من السنارة، ومزقته نتفاً أمامها، وأمام زميلاتها، معطية بذلك عبرة لا تنسى في تقديس العمل! وظلت عيون الممرضات خرساء مطفأة وهن يراقبن الحركات العصبية والقاسية في تقطيع الصوف، بينما سعاد تطرق رأسها وتذرف دمعة حارقة بين وقت وآخر.

ومع ذلك عاودت سعاد كغيرها من الزميلات حياكة الصوف بعد أشهر، وكانت تعمل بالأجرة أحياناً لتزيد دخل الأسرة، وكن يسرعن لإخفاء أشغالهن ما إن يشممن رائحة حضور رئيسة التمريض، بعض الممرضات كن يحضرن بضائع متنقلة وبسرية تامة لبيعها، أمشاط، أقواس للشعر، علب ماكياج رخيصة، عطورات روائحها منفرة، بيجامات رياضية للأطفال، من أرخص الأنواع، كن يبعن هذه البضائع فيما بينهن وبالتقسيط. ماذا يفعلن، الوقت طويل طويل، ثماني ساعات، وفي كل قسم أضعاف مضاعفة من الممرضات والحاجة لاثنتين أو ثلاث على الأكثر، فلماذا يحشرون العشرات فيها؟ ويطلبن إليهن أن يتيبسن على المقاعد، ما العمل في هذه الظروف؟!

كانت نفس سعاد تتعجن بألم لا يحتمل، وهي لم تتخيل بعد واقع نقلها مطرودة من المشفى، كارثة حقيقية، كانت تحس

أنها خرقة ممزقة تقف وسط حشد من الأطباء، وقد غام نظرها، فضاعف صور الأطباء الثلاثة، الذين ظلوا صامتين يراقبون بشيء من التلذذ الخفي المشهد أمامهم.

قالت رئيسة التمريض: لقد أعذر من أنذر يا سعاد، لقد أنذرتك، لكنك عاودت حياكة الصوف.

وتجرأت سعاد على الرد: صدقيني في أوقات الفراغ، وليس على حساب عملي.

وانتفضت رئيسة التمريض تقول: ماذا؟ أو تجرؤين على الكلام بعد؟ ما رأيك لو تترك ممرضات المشفى العمل، ويحكن الصوف، إيه ما رأيك؟

ودت سعاد لو تملك الجرأة وتقول: لكن هل هناك عمل؟ إننا نجلس طوال ثماني ساعات وعملنا الفعلي لا يتجاوز الدقائق، لكنها كانت واثقة أنها لو تفوهت بهذه الجملة فستطرد إلى الأبد من وظيفتها.

انهمرت دموع سعاد وهي تعي بعين خيالها لوحة الذل الفظيعة التي تحيط بها، الأطباء، ورئيسة التمريض، وهي في القلب، قالت بصوتٍ مختلفٍ: أرجوك احسمي راتبي كله، إنما النقل، إنه فظيع، والصغيران.

قاطعتها رئيسة التمريض: لقد أنذرتك يا سعاد، والقانون هو القانون، إنه فوقي وفوقك.

مسحت سعاد دموعها بشاشة مطوية وجدتها في جيب ردائها الأبيض وقالت: لكن القانون رحمة. وانطلقت كلمة رحمة من حنجرتها لكأنها تتجسد وشاحاً من حرير، يحيط بوجه سعاد

www.mlazna.com-رياح الشرق

ويمسح دموعها برقة، لكن رئيسة التمريض قالت: كفى، القرار اتخذ، وقد أعذر من أنذر.

غامت وجوه الأطباء وسط دموع سعاد، لعلها كانت تنتظر أن يتدخل أحدهم من باب الفضول، لكنهم ظلوا بكماً، بل تأكدت قناعتها بأنهم يتلذذون بالمشهد، أي زمن هذا يتلذذ فيه الإنسان بمصائب الآخرين؟

تحاملت سعاد على نفسها وسارت تبدل ثيابها، ولم تستطع كبح دموعها وسط زميلاتها اللاتي تحومن حولها يحاولن مؤاساتها، لكنهن انصرفن واحدة إثر أخرى، حين أزفت لحظة الانصراف، قصدت سعاد حضانة المشفى لتصحب الصغيرين، فريد في الثالثة من عمره، ومجيد أكمل عامه الأول منذ أيام، قبلتها بلوعة لم تشعر بها من قبل، حتى سألها فريد: ماذا، وجهك ساخن، هل أنت مريضة؟

قالت: لا، ثم أردفت: ربما.

انتظرت الباص، وصعدت درجاته الضيقة حاملة الصغيرين، وانحشرت بين الكتلة البشرية، وغضت عن التعليق السافر للصبي الذي يجمع النقود من الركاب: يا أختي احجزي مقعدين، كانت تجلس الصغيرين في حضنها، وتحس بانكسار ووهن لدرجة أحست أن الكلام يتطلب منها جهداً خارقاً، وحاولت أن تبحث عن حلول لمصيبتها الطازجة لكن عبثاً، كيف عساها تفكر، وهي تعي بأملٍ حارقٍ ماذا يعني فقدانها عملها في المشفى، وميزات هذا العمل، قربه من بيتها، الحضانة للصغيرين، صحيح الراتب شحيح، لكنه يسند، الحصوة تستند جرة، والإنسان حيوان عادة، اعتادت أن تعيش حاملة شعار: خبزنا كفافنا، أعطنا اليوم، أما الآن، آه باللوجع، وجع صريح وقاسٍ تحسه في جسمها كله،

ماهذه المصيبة؟! ترحمت على أمها، ماذا لو بقيت على قيد الحياة لتساعدها في حضانة الصغيرين؟ أما حماتها فتشكو من خمسة أمراض كما تدّعي، وإذا سجّلت الصغيرين في حضانة فستدفع أكثر من نصف راتبها، أما النصف الآخر فسيتبخر في المواصلات إلى المستوصف الجديد...

يا إلهي هل أستحق هذه المصيبة؟! تساءلت، ما العمل؟ تذكرت زوجها، سيرجع اليوم الرابعة فجراً من رحلته، سيكون محطماً من التعب، وسينام طويلاً، لا، لن تخبره بالمصيبة، ستؤجل الحديث حتى يرتاح ويأخذ كفايته من النوم، لكنها تعرفه، إنه قاسٍ، سيلومها بأنها السبب في ما حصل لها كله، إنها تسمع صوته الساخر والغاضب في تلك اللحظة يسألها: ولماذا تحيكين الصوف في مكان عملك؟ أغمضت عينيها وصدى صوته يترجع مراراً في ذاكرتها: أنت الملامة، أنت الملامة، كانت من أهم مواهبه أنه يريدها أن تظل في حالة ندم، لا تعرف لماذا تستهويه هذه الحالة؟ أهي نوع من السادية، أوه كفى لا أريد أن أفكر به الآن، تنهدت وهي تحدث نفسها فيما ذقنها مستندة برفق إلى رأس صغيرها، آه ما أتعس المرأة، كانت شاردة وراء عمق هذه الفكرة حين همت بالنزول من الباص حاملة الصغير بين ذراعيها وموجهة الكبير لينزل بعدها بحذرٍ، لكن قدمها اليمنى التوت بقسوةٍ لأنها لم تنتبه لحفرة صغيرة في الطريق، صرخت متألمة بصوتٍ مكبوتٍ، لكنها تابعت سيرها، كان الصغير قد غفا من الإرهاق، والكبير يسير وراءها بخطى متعبة تستحثه دوماً أن يسرع، بأن تلتفت إليه وتقول بصوت مكسورٍ: هيا أسرع يا صغيري، واستطاعت رغم مشاعرها المنكوبة والمتعاظمة أن تلمح ملامح التعاسة القاسية على وجه

ابنها الأكبر، غاص قلبها، إنه غير سعيد، إنه سجين مثلها كل يوم من السادسة صباحاً وحتى الثانية ظهراً، في بناء أشبه بالسجن، ليس فيه دمية، لا زهرة ولا أغنية، مجرد حفاظات وزجاجات حليب.

حين دخلت بيتها أحسّت بشيء من الراحة وعاودت دموعها تسيل بصمتٍ أوسدت صغيرها سريره، وخلعت حذاءها فدهمها ألـمٌ حَاد في كعب قدمها اليمنى، صرخت اللعنة لا ينقصني سوى الألم الجسدي لتكتمل مأساتي.

سألها ابنها: ما بك يا ماما؟

صرخت بغضب: اسكت الآن... لكنها ندمت للحال ودعته للاقتراب فنظر إليها بعتاب ولم يقترب، قامت تحضنه وتقبّله وتبلل شعره بدموعها وتقول: آسفة، لكن رجلي تؤلمني كثيراً.

سخّنت الطعام المُعدّ منذ يومين لكنها لم تستطع ابتلاع لقمة واحدة بل جلست قرب صغيرها تتأمله يأكل فيما هي تتجرّع الماء من كأس تملؤها كلما فرغت وتذكرت أنها كلّما مرّت بمصيبة فإنها تكثر من شرب الماء ضحكت من ألمها وهي تتساءل عن سبب هذه الصفة فيها، وقالت لعلّ الماء يطفئ حريق قلبي وراق لها هذا التعبير واستحسنته وفجأة انتابتها رغبة عارمة بالسعادة اشتاقت أن تكون سعيدة وأن تضحك وتمزح وتقفز وتصير فراشة آه ليتها فراشة حقاً! وأخذت تقول بصوت تغيّر كلياً عما كان وهي تتكلم مع رئيسة التمريض.

صوتها الآن لونه وردي نابض بالحياة، قالت مخاطبة صغيرها: ألف صحة على قلبك وومضت فكرة بذهنها أحستها تهبط عليها من العناية الإلهية ستترك الصغيرين غداً عند جارتها أم حسان ستقول لها: أرجوك اعتن بهما ريثما أدبر أموري وستعدها أنها

ستحيك كنزات بديعة لأولادها مهما بلغ تعقيد الرسوم والقطب التي ستختارها وهبَّت عزيمة لا تقاوم في نفسها بأنها مظلومة وبأنها ستقاوم.

أجل إنها مظلومة غير معقول أن تنتقل بهذه القسوة من مكان عملها في المشفى إلى مستوصف ناءٍ لمجرّد أنها ضبطت تحيك الصوف، وأحسّت بحقد لاذع على رئيسة التمريض لا، لن تسكت ستذهب عصر هذا اليوم إلى المدير ستشرح له ظروفها ستستسمحه وستحلف أيماناً معظمة بأنها لن تعاود حياكة الصوف بعد الآن في مكان العمل ولو ماتت من الضجر والاختناق، أجل ستستسمحه بالحرارة الصادقة كلها التي تشع من كيانها وحاولت أن تثبت الأمل في نفسها بأنه إنسان متفهم ومثقف ولطيف، هذا ما تسمعه عنه، عندها أمل كبير أن يفهمها.

نظرت في ساعتها لا يزال أمامها أكثر من ثلاث ساعات لتتمكن من رؤيته في مكتبه واختلج كيانها للحظة ماذا لو رفض استقبالها ألم تتعلم في مدرسة الحياة أن المديرين عادةً يرفضون استقبال أصحاب الأوجاع بل يستقبلون الأشخاص الذين يسرّون حواشهم لكنها سرعان ما عنّفت نفسها بأن لكل قاعدة شواذ وبأن هذا المدير استثنائي ألم تذكر لها إحدى صديقاتها بأنه يستمع لكل إنسان يقصده ويساعده فلم لا تجرب، صوّر لها خيالها صورتها تحكي له مشكلتها بحرارة وندم، وتخيلته كيف سيمزق تلك الورقة الرقيقة وسيقول لها واعداً غداً تداومين في المشفى كالعادة لن أنقلك إلى المستوصف، اطمئني، لن تتمكن من مقاومة دموع الامتنان والشكر عن الانهمار من عينيها وفي طريق عودتها ستشتري صوفاً من أجود الأنواع، ستختار اللون العسلي وستتعمد أن تتعرف

بأولاد المدير ولو عن بعد لتحيك لكل منهم كنزة رائعة، إنها تتحدى أية إنسانة تنافسها في حياكة الصوف ستحيك لابنه كنزة الحصان كالتي حاكتها لابنها منذ عامين، لوحة فنية بديعة، كان المارة في الشارع يستوقفونها ليسألوها من أين اشترت هذه الكنزة؟

كانت قد جرعت ثلاثة أكواب من الماء فيما خيالها ينشط في تخيل مقابلة المدير، وحين قامت لنقل الصحون إلى المجلى، صعقها ألم فظيع في كعبها الأيمن، وقالت ساخطة: أهذا وقته؟ ولماذا تنهال المصائب بالجملة عليها؟

تذكرت يوم وفاة أمها وكانت في أوج أحزانها، فاجأتها نوبة ألم بطني حادة جعلتها تتلوى أرضاً كدجاجة مذبوحة، يومها أسعفوها بأن زرقها طبيب الإسعاف إبرة وريدية مُسكنة، وقال بأنها تشكو من قولنج كلوي على الأغلب سببه حصاة صغيرة أو رمال، يومها تساءلت باحتجاج على الكون، على الحياة:

- أما كان بالإمكان تأجيل تلك النوبة!! والآن وهي تتلقى أقسى قرار عقوبة تعرضت له، أكان لازماً أن تؤلمها قدمها لهذا الحد؟ ولماذا يتزامن ألمها الجسدي والنفسي إلى هذا الحد، وأسعفتها ذاكرتها بأنها حين كانت حاملاً بابنها الثاني أصابها ألم أسنان فظيع، لم يهدأ مع المسكنات كلها، آه، كُفّي أيتها الذكريات، لاتشوشي ذهني، فسأركز انتباهي الآن وحواسي كلها في مقابلة المدير، المنقذ الوحيد...

طلبت من جارتها أم حسان أن ترعى الصغيرين لمدة ساعة ريثما تعود، لكن جارتها بحلقت بها وسألتها: سعاد أنت تعرجين!

قالت سعاد: أجل، لقد التوت قدمي وأنا أنزل من الباص.

- لكن يا سعاد، عرجك صريح، ورجلك متورمة، لعلها مكسورة.

ردت سعاد بلا مبالاة: لا، لا أظن.

- سعاد أنصحك بتصويرها على الأشعة، بل يجب أن تصوريها.

- حسناً، حسناً. قصدت عيادة المدير، كانت مقفلة، الساعة لا تزال الرابعة والنصف، أخذت تتجول حول عيادته، تتفرج على الناس والمحال، وتتساءل كلما رأت وجهاً: أتراه خالي البال، أم يعاني مشكلة؟! لكن أياً منهم ليس ملتاعاً مثلها الآن.

توقفت أمام محل مفروشات فخم للغاية، تقدم منها شاب ودعاها بلباقة للدخول، دخلت تتنشق الرائحة الذكية للخشب اللماع، فتنتها الكراسي والمكتبات والطاولات، وغرف الجلوس.

سأل الشاب بأدب: ما طلبك؟!

قالت بصوتٍ واثق أدهشها: غرفة طعام.

لم تعرف لماذا أجابت بهذه الثقة والاعتداد كله، لدرجة كادت تصدق نفسها حقاً بأنها ترغب بغرفة طعام، قادها عبر رواق طويل إلى قاعة واسعة فيها أربعة أطقم لغرف طعام وسألته بصوت واثق يعطي إحساساً أن حقيبتها متخمة بالنقود:

- هل يمكن أن تعطيني فكرة عن الأسعار؟

قال بأدب جم: بالتأكيد، وسألها: كيف تشربين القهوة؟

قالت: لا داعي لإرباكك.

قال: أبداً، أنت شرفت المحل.

قالت: شكراً.

www.mlazna.com-رياح الشرق

- قليل من السكر.

قاومت ألم كعبها الممض وهي تنتقل وراءه يعطيها فكرة عن سعر كل طقم... هذا بمئة وثمانين ألفاً، وهذا بمئة وعشرين و... قاطعته: يا للغلاء.

رد ضاحكاً: إنها أسعار اليوم.

قالت لنفسها بتهكم: ورواتب اليوم كيف هي!! حانت منها التفاتة لترى بعوضة صغيرة تحوم على زجاج النافذة، ضحكت وهي تقول: هذه البعوضة هي راتبي.

انسحبا من الصالة الفاتنة، وجلسا في مكتب مريح ليرشفا القهوة، وجدت نفسها تحدثه حديثاً بعيداً عنها، غريباً مضحكاً، بأنها منذ زمن تبحث عن أثاث غرفة طعام ولم توفق، وأنها بالحقيقة ترصد مبلغ مئة ألف ليرة لا أكثر، ابتسمت وقد راق لها اقتناص شخصية امرأة ثرية، وأمكنها أن ترسم على وجهها علامة اللامبالاة والملل وربما القرف الخاصة بالأغنياء، فيما كانت عيناها مبهورتين بما تراه حولها كله.

قدّم لها سيجارة تناولتها شاكرة، وأخذت ترشف قهوتها، تنفث دخان السيجارة متمنية لو تنسى أنها تبدد الوقت في انتظار مقابلة المدير، ماذا لو تحصل معجزة، وتكون هي فعلاً تلك السيدة الثرية التي ستشتري غرفة للطعام، يعادل ثمنها راتب ممرضة في أربع أو خمس سنوات، يا لسخرية القدر.

شكرته على قهوته وحسن ضيافته ووعدته بلهجةٍ جازمةٍ أنها ستعود هذا المساء برفقة زوجها ليتفقا على الأثاث الذي سيختارانه.

سألها وهي تغادر عارجة:ماذا يعمل زوجك؟

قالت دون ارتباك: يملك شركة سفريات.

قال: عظيم.

نظرت في ساعتها، إنها الخامسة، خفق قلبها بعنف، العيادة مفتوحة، أطلت برأسها من الباب الخارجي للعيادة، وهي عاجزة عن التحكم بخفقان قلبها المتسارع، كانت ممرضة تجلس باسترخاء تصغي إلى مسلسل إذاعي.

سألتها: هل الدكتور موجود؟

قالت: نعم، إنه في الداخل.

قالت: لو سمحت أريد أن أقابله.

سألتها الممرضة: ألست مريضة؟

قالت: لا، ثمة موضوع.

هزت الممرضة رأسها وقالت: حسناً، سأخبره.

بعد برهة كانت وجهاً لوجه مع المدير، يا للطفه ووداعته، وقف وسلم عليها بأدب وقال تفضلي، شكرته وهي تحس بهدوئه ينتقل إلى نفسها المضطربة فيطمئنها، وجدت نفسها تشرح له مشكلتها ببساطة شديدة، وترجوه أن يرد عنها لعنة انتقالها، ووعدته والدموع تترقرق في عينيها أنها لن تعود إلى حياكة الصوف أبداً، لكن دافعاً خبيثاً في داخلها وسوس لها أن تبوح له مستغلة كمية الخبث العادية في النفس البشرية وتفضح زميلاتها اللاتي يحكن الصوف ويبعن الأغراض البسيطة في المشفى، وأن هناك آذناً يبيع ساعات مهربة ورخيصة، آه ماذا لو حكت كل شيء للمدير.

أتاها صوت المدير واثقاً مرتاحاً: سيدة سعاد، أنا أقدر تماماً

ظروفك العائلية، لكن للقرار حرمته، وقداسته، ما عليك الآن سوى الإذعان، صدقيني لو حكيت لي المشكلة قبل صدور القرار، لكنتُ منعته حتماً، أما الآن فأنصحك بالالتحاق بعملك، وبعد فترة يمكن إعادة النظر بوضعك، يمكن التماس العذر، وشرح ظروفك العائلية.

سألت بصوتٍ واهن معتقدة أن الصوت الواهن ضرورة لمخاطبة مدير: بعد فترة؟! هل يمكن أن أعرف كم تدوم، أقصد...؟

قاطعها المدير مبتسماً: لا تستعجلي يا سيدة سعاد، لا يمكنني أن أحدد الفترة، شهر، شهران.

- لكن... وانهمرت دموعها عنوة عنها، لو تستطيع تصور ظروفي يا سيادة المدير؟

- سيدة سعاد، أعدك أن أساعدك، لكن كما قلت لك للقرارات حرمتها.

شكرته، لأول مرة تصدق مسؤولاً أنه سيساعدها آمنت أنه سيبذل جهوده لمساعدتها بعد فترة، الله أعلم كم تطول، لأول مرة تشكر مسؤولاً من وجدانها وقلبها كليهما ودون خوفٍ أو مجاملة.

في طريق عودتها ابتسمت لمحل المفروشات وهي تقول بلهجة لا تعرف تحديداً قصدها منها: يا لسخرية القدر، وكررتها مراراً: أية سخرية! وبدأ حزنها يتكاثف لدرجة عجزت عن تحملها، تلبدت غيومه داخلها وتحولت لغيوم من إسمنت، بقلبها وتخنقه، وعاودها الإحساس بالذل للتفاصيل كلها وهي تقف وسط غرفة المحققة، يا للقسوة، يا لقساوة القلوب، وبدت مفعمة بالدهشة والتساؤل، ترى

لِمَ لم يتدخل أي من الأطباء، بتعليق ، بكلمة، عجباً! أي عصر هذا نعيش فيه؟ وبدا لها زمانها وهي تعرج متحملة وجعاً لا يطاق في قدمها، بصورة وتفاصيله كلها فظيعاً في قسوته وغرابته لدرجة أنها توقفت عن السير لكأنها تتأمل قسوة هذا الزمن!

عادت تحتضن الصغيرين المسكينين في بيتها المؤلف من غرفة وصالة صغيرة، قبلتهما بحب لم تشعر بقوته من قبل، شاعرة بحدسها أن تحب لا يبلغ ذروته إلا حين يكون الإنسان مهدداً بأمنه واستقراره وسعادته.

تناولت بكثافة دواء مهدئاً، وآخر منوماً، لكنها لم تستطع أن تغفو، حتى أحست برجوع زوجها عند الفجر متهالكاً من تعبه وسألها: كيف حالك وحال الأولاد؟ وقبل أن يسمع جوابها كان يغط في النوم.

أشرق الفجر في الخارج، أما داخلها فظل مظلماً بكثافة لم تعرفها من قبل، حملت الصغيرين إلى جارتها بعد أن شرحت لها ظروفها ووعدتها أنها ستباشر منذ اليوم في حياكة الصوف لأولادها، وبدت الجارة سعيدة بهذه المعادلة. كان ألم كعبها لا يطاق، وصار عرجها مضحكاً، بدلت ثلاثة باصات حتى وصلت إلى المستوصف، دخلته بقلبٍ واجفٍ، كانت قد تأخرت ثلاثة أرباع الساعة، قصدت غرفة المدير بعد أن سألت عنها الآذان الذي كان يجلس عند الباب يرشف الشاي ويدخن، قال لها المدير بخفاء، عليك أن تعرفي أنني لا أسمح بالتأخر دقيقة واحدة، الآن سأحسب لك تأخرك، سأكتب لك إذناً ساعياً وأظنك تعرفين أن كل خمس ساعات أذون ساعية تعتبر يوماً إجازة إدارية، أظنك سمعت عني، أنا شديد في تطبيق القانون لا أسمح بالتسيب، ومن لا يعجبه أسلوبي يمكنه الانتقال

إلى مكان آخر، أو ترك العمل أساساً.

قاطعته بلهجة الأمل والذل: لكني جديدة.

قال: لا فرق عندي، جديدة، قديمة، القانون هو القانون.

أشار إليها أن تلتحق بالعيادة الجلدية، كن ثلاث ممرضات أنهكهن الضجر، يجلسن كل على كرسي كأنهن محنطات، ساهمات، قلن لها بتودد ودون تردد: هل أنبك على التأخير، الله يلعنه، والله لا أحد يطيقه، لو تعرفين كم ندعو عليه كل يوم، بأن يصيبه الله بأنواع المصائب كلها.

قالت ممرضة بدينة في الخمسين من عمرها: والله لو سمعت الآن بأن سيارة دهسته وهو ينزف دمه في الطريق، لفرحت ولمررت بجانبه دون أن أمد له يد المساعدة.

تساءلت: أإلى هذا الحد تكرهنه!!

قالت الممرضة الخمسينية: إنه حقير، هدفه تفقيعنا كل دقيقة، تصوري لو تأخرت ربع ساعة يحسبها علي، والله كل سنة يضيع أكثر من عشرة أيام من إجازاتي الإدارية بسبب لؤمه.

شربت معهن الشاي، أصغت لأحاديثهن، لضجرهن القاتل، أحست بشيء من عزاء قالت إحداهن: تصوري أنني البارحة من شدة ضجري، أخذت أعد السيارات التي تمر في الشارع، ضحكت، عددت مئتي سيارة خلال ربع ساعة، بعدها قلت لنفسي لعلك صرت مجنونة يا امرأة.

علقت الممرضة الخمسينية: والله كلنا سنخرج مجانين من هذا المستوصف.

قالت ممرضة نحيلة شابة: والله البارحة لم أنم لحظة، كانت

بعوضة تطارد زوجي في السرير، غضب لماذا تحوم البعوضة حوله ولا تقترب مني؟ قلت له مازحة: هذا يعني أنها بعوضة أنثى.

ضحكن جميعاً ما عدا سعاد، عاودت الممرضة تتحدث عن مغامرات زوجها في قتل البعوضة، وكيف كان يشعل الضوء كل دقيقة ويمسك المنشفة ليقتل البعوضة.

سألت سعاد: كيف العمل هنا؟ ألا يوجد مرضى.

ضحكن ثلاثتهن: مريضان أو ثلاثة في اليوم، احمدي ربك الدكتورة إجازة طوال هذا الأسبوع.

قالت سعاد بدهشة: إذاً نحن أربع ممرضات في عيادة واحدة.

قالت الشابة النحيلة: كساد، كساد، ماذا نفعل نتخرج من مدرسة التمريض مثل بذور البقلة.

قالت سعاد: إذاً لا يوجد عمل فعلي؟

قلن بصوتٍ واحد: لا شيء.

بعد رشف الشاي ثم القهوة ابتدأت أحاديث الطعام كيف تحضر كل منهن المربيات والديون التي يتسببها شراء الزيت والزيتون ومطاليب الأولاد التي لا تنتهي. آه، سعاد تحس بدوارٍ، وكعبها يؤلمها ويمضُّ باستمرار دون فترة هدنة، لكنها سرعان ما اندمجت في أحاديثهن، حكت لهن عن ألم قدمها، نصحتها إحداهن أن تطلب إجازة مرضية من مدير المستوصف، لكن أخرى اعترضت قائلة إنه لن يمنحها إجازة من أول يوم تداوم فيه.

قالت سعاد: لكنني متألمة حقاً؟

ضحكت الممرضة الخمسينية: ومن يبالي بآلامنا. وافقتها

www.mlazna.com-رياح الشرق

بجوارحها كلها قائلة: معك حق.

قالت الممرضة الشابة: منذ أيام كان ابني مريضاً حرارته 41 درجة، تصوري اتصلت به وقلت له لن أستطيع الحضور لأن ابني مريض، لم يصدق قال لي أحضريه لأتأكد بنفسي، تصوري حملت الصغير وجسده يلتهب بالحرارة وأتيت لأضعه أمامه قال مقطباً: حسناً اكتبي إجازة ثلاثة أيام هل رأيتن نذالة أكثر من نذالته.

أحست سعاد بدهشة ممزوجة بالخوف من عمق الكره الذي يكنّه لمدير المستوصف.

قالت الممرضة الشابة: تصوري ابن الكلب جمعنا البارحة، قال اجتماع هام، هل يخطر لك يا سعاد ما موضوع الاجتماع؟ قال: إنه يتوجب علينا أن نبتسم في وجه المريض، ابن الحرام، هل يبتسم هو في وجوهنا؟! قاطعته الممرضة الخمسينية قائلة: كيف سنبتسم؟ أمن أهمية الراتب؟ لو كان راتبنا سخياً لا لابتسمنا، لضحكنا، بل لرقصنا للمريض.

كانت سعاد تشرب كل كلمة تسمعها منهن، وكانت تؤمن لحظة بعد لحظة أن لا عزاء لها سوى رفقة نساء في ظروفها ويعشن مأساتها، وحكت لهن سبب انتقالها إلى المستوصف، وكيف تشرد طفلاها، كانت تحكي لهن لكأنهن صديقات طفولتها الحميمات.

ضحكن، قلن لها: بسيطة سيمكنك هنا أن تحيكي عشرات الكنزات الصوفية بل المئات.

أجفلت سعاد وقالت: أعوذ بالله والله لقد أقسمت ألا أحيك الصوف في مكان عملي، لقد وعدت المدير، وهو سينظر بوضعي بعد فترة.

ضحكن، قالت الممرضة الخمسينية: لا يزال جرحك طرياً غداً ستعتادين، اسألينا نحن.

أطلت ممرضة بدينة من الباب وقالت متهللة: انقلع، ذهب في جولة إلى المستوصفات، علت زغاريد من عدة حناجر وتعالت أصوات، ذهاب بلا إياب إن شاء الله، الله لا يرده.

وسألت الممرضة الشابة الممرضة الوافدة، إن كان بإمكانها أن تستعير منجفة لنجف الباذنجان من إحدى الجارات، فقالت لها الأخيرة على عيني. وما كادت الممرضات يسمعن هدير السيارة المفرقعة التي تقله بعيداً، حتى أخرجن للحال أكياس الخضار، الباذنجان والكوسا، والفاصولياء، انهمكن في النجف، وترتيب أوراق العنب وتنضيدها بعد قطع غصنها الدقيق.

أحست سعاد بمزيج متناقض من المشاعر، أرادت أن تضحك، ثم هاجمتها دموع حارقة منعتها من الانهمار، عرضت عليها إحدى الممرضات لو تذهب إلى الدكان القريب من المستوصف لتتسوق لأن خضاره ممتازة، لم تجب، كانت تتأمل ممرضة شاحبة تغط في النوم على سرير فحص المرضى. وجدت سعاد نفسها تقف فجأة لكأنها تذعن لأمر ما تجهله، لكن ألم قدمها القاسي أجبرها على معاودة الجلوس، أغمضت عينيها، كان الإعياء يشع من جسدها، لعله من تأثير الحبوب المنومة التي رغم تناولها لم تغف لحظة، لعله بسبب الكارثة الطازجة التي ألمت بها ولم تستطع تقبلها بعد، لعله بسبب شوقها الكبير لطفليها البائسين وقلقها عليهما من جارتها أم حسان المهملة... كانت دموعها تتسلل لاذعة تحت أجفانها تبتلعها بصمتٍ، كانت تحتاج لشيء حيوي وأساسي تحسه بجوارحها كلها ولا تعرفه، ترى ما هو؟ أتاها الإدراك ومضة لقد

عرفت أنه النسيان، كانت تريد أن تنسى كل شيء كل شيء، عدا كونها أماً كانت تشتاق لحد الاحتضار أن تحضن الصغيرين وتغيب في غيبوبة طويلة طويلة.

على شفير الهاوية

استأذنها ليعلق معطفها الوحيد الذي تلبسه منذ أكثر من عشر شتاءات متوالية، تأملته يحمل معطفها على ساعده ويعبر ردهة طويلة واسعة مفروشة بسجادٍ فخم من اللونين الأخضر والرمادي الفاتح، ويغيب في آخر الردهة منعطفاً إلى اليمين متجنباً الاصطدام بجرن نحاسي كبير مزخرف، يحمل شجرة خضراء صغيرة لم ترَ في حياتها أجمل منها، وتساءلت ما نوع هذه الشجرة الرائعة التي تشبه شجرة الشوح، خضارها لماع، وأغصانها مرتبة ترتيباً هندسياً تدق وتقصر كلما ارتقت الأغصان درجة إلى أعلى، أخذت نفساً عميقاً وهي تنقل بصرها في الصالون الواسع، وجسدها يغوص في الأريكة المخملية مسترخياً مرتاحاً، تأملت اللوحات الرائعة التي تزين الجدار عن يمينها وقد رتبت ترتيباً أنيقاً كالدرج، وقامت عن الأريكة مستندة إلى يديها لتنتشلاها من السرير الطري الذي أحدثه جسدها في نسيج المقعد اللين المخملي، واقتربت من اللوحات المتماثلة في المساحة والإطار الخشبي الرفيع، وأحست بالافتتان من المناظر الطبيعية الخلابة التي تصورها تلك اللوحات وكانت مرسومة بالألوان المائية الفاهية، وتوقفت طويلاً عند لوحة البحر، وانتقل إلى نفسها هدوء البحر وسكونه، وعلى سطحه عدة قوارب صيد صغيرة، والشمس في نهاية خط المدى قرص صغير باهت

غرق نصفه في البحر واللون اللازوردي البديع يغرق اللوحة كلها وابتسمت وهي تسمي اللوحة بلوحة الأبدية الساكنة.

لم تشعر بخطواته حين اقترب منها ووقف إلى جانبها متعمداً أن يقتل المسافة بينهما، سألها بانشراح: أتعجبك اللوحات؟

قالت وهي تشعر بمدى سعادته وشعوره بالنصر من قبولها دعوته: كثيراً.

ردّ بافتخار: عندي مجموعة هائلة من اللوحات، أترغبين برؤيتها؟

نظرت إليه متصنعة الابتسام: أجل.

ربت خدها الدافئ وقال بودٍ: الآن؟

قالت وهي تحس بذلك الشيء الوحيد الذي ينتظره الحصول عليها: أجل.

أمسك يدها وقال: تعالي.

تركته يقودها ممسكاً بيدها وهي تعي بعمق أنهما كيانان منفصلان يستحيل أن يندمجا في العمق، وأن عالمها لن يكون عالمه أبداً، خطان مستقيمان لا يلتقيان، وأكدت لها مشاعرها أن ما تكنه له هو الكراهية الفعلية، وأخذت تتأمل روعة الصالون الذي بدا لها عالماً كبيراً من الزجاج، فواجهاته كلها من الزجاج المدخن الممتد من السقف إلى الأرض، وتوقفت وهي تقول له: تعال نخرج إلى الشرفة، المنظر منها بديع.

كان سعيداً مغطياً كطفل صغيرٍ حصل على لعبة تمناها طويلاً، سحب أحد الأبواب الزجاجية وخرجا إلى الشرفة الواسعة، ولم تبالِ بالهواء العاصف، كانت تطل على المدينة من الطابق الخامس

www.mlazna.com-رياح الشرق

عشر، امتلأت نفسها غبطة وقالت وهي تلقي برأسها إلى الخلف مستمتعة بالريح تطيّر شعرها، وتلسع وجهها ورقبتها: أحس أنني أقرب من السماء مني إلى الأرض.

قال وقد شجعه الهواء العاصف على الاقتراب منها واحتضانها: أنا لا يهمني أن أكون قريباً لا من السماء ولا من الأرض، بل منك.

ضحكت بتصنعٍ وهي تنفلت منه، وتسير بخطى سريعة على الشرفة، وقالت بصوتٍ مرتفعٍ لتتغلب على صوت الريح: أتعرف أنك تشبه الأطفال.

أخذ يرتجف من البرد قال لها وأسنانه تصطك: تعالي، سنتفرج على المنظر من خلال الزجاج.

بدا اقتراحه معقولاً، دخلا، فأغلق الباب الزجاجي بإحكام، وغزاهما دفء الشوفاج اللذيذ، وقفا ملاصقين للزجاج، وامتدت يده الحرة لتكتب على البخار "أحبك"، ضحكت وهي تحسه مراهقاً صغيراً تعطف عليه، وليس رب عملها، رجل الأعمال الثري الذي يعدُّ من أهم رجال الأعمال في المدينة، غادرتهما حالة البهجة العصبية التي أحستها للحظات، وتخيلته يكتب هذه الجملة لكثيرات من قبلها، وكثيرات سيأتين بعدها إلى هذا المنزل الأسطوري، أوه لا يهم، فهي لا تحس بالغيرة لأنها لا تحبه، كما أنها ليست صيداً ثميناً، لأنها رافقته بكامل وعيها وإرادتها، وتفتقت بذهنها جملة آمنت بها واعتبرتها تلخص العلاقة كلها - أنا أقدم له الحضارة، وأكد لها صوت الهواء الغاضب في الخارج أنه لا يعي سوى حقيقة واحدة هي رغبته في امتلاكها.

ضغطت يده على خصرها وقال بمرح: إيه، أين وصلتِ في خيالاتك؟

نظرت إليه بثقة وابتسمت قائلة: أوه، لم أكن أتخيل.

قادها من يدها إلى الصالون الثاني الكبير الذي يفصله عن الأول البار والبيانو، وواجهة كبيرة لخزانة زجاجية تضم أشكالاً كبيرة ومتنوعة من كؤوس الكريستال، والفضيات الفخمة المطعمة بالذهب، وتحفاً صغيرة من الجاد والعاج، تركته وجلست على مقعد البيانو المخملي الأحمر، ورفعت الغطاء الخشبي الضخم، فسألها: أتجيدين العزف؟

ردت: أجل. وأنت؟

قال: إطلاقاً.

أحضر كأسين من الكريستال لهما ساق زجاجية طويلة، وسألها ما رأيك أن نشرب شمبانيا نخب زيارتك الأولى لي.

قالت: كما تريد.

وأخذت أصابعها تعزف بمهارة لموزارت، وطغت صورة الراهبة الكهلة ماري كلير فوق أصابع البيانو، ماري كلير مديرة المدرسة الخاصة للبنات التي كانت تعطف عليها وتحبها وتسمح لها أن تتعلم العزف على البيانو مع الطالبات الثريات، وهي ابنة سائق الباص الخاص بالمدرسة. في طفولتها لم تشعر بالفروق الطبقية بينها وبين الطالبات المدللات المترفات، وربما تفوقها عليهن بالدراسة كان تعويضاً قوياً، حتى في دروس اللغة الفرنسية، تفوقت كانت تهوى الفرنسية وأحب تسلية لنفسها كانت أن تلقي أشعاراً بصوتٍ عالٍ لأشهر الشعراء الفرنسيين، وكان والدها يطرب

سعيداً من سماعها رغم أنه لا يفقه شيئاً مما تقوله، لقد أعفته الراهبة من الأقساط، وسمحت لأولاده الأربعة أن يسجلوا في المدرسة الخاصة التي تشرف عليها الراهبات.

كانت الكبرى بين أخواتها، وأخوها الذي يليها يصغرها بأربع سنوات، لكنه لم يكن يحب المدرسة مثلها. كان يحس بالغيرة والقهر، وكان رفاقه يعيرونه بلباسه، وبأنه ابن خليل سائق الباص، ورغم أنه كان صغيراً على الحقد، لكنه تعلمه جيداً وعلى أفضل وجه في هذه المدرسة وكانت سعادته غامرة حين غادرت الراهبات، وتحولت المدرسة الخاصة إلى مدرسة حكومية، لكنها حزنت كثيراً على فراق ماري كلير.

تذكرت يوم دخلت لتودعها وكانت نهاية مرحلتها الإعدادية، شابة متفوقة موهوبة في العزف على البيانو، ونظرت إليها الراهبة بعينيها الزرقاوين الصغيرتين الغائرتين، وقالت لها وهي تفتح ذراعيها لتحتضنها: سناء، ثابري على اجتهادك، فأمامك مستقبل مشرق.

ضحكت وقد توقفت على العزف، كان يقف إلى جوارها مسنداً ساعده إلى ظهر البيانو، يتأملها وهو يمسك كأس الشمبانيا بيده، ويرتشف منه رشفات كبيرة، قال لها: عزفك رائع؟

ضحكت وسألته: كيف عرفت أنه رائع؟

ردّ ضاحكاً: أوه هكذا أحس، كل شيء يصدر عنك رائع.

قدم لها كأس الشمبانيا، فأخذتها وهي تبتسم بخجلٍ، أحست أنها في قلب الموقف وأن التراجع مستحيل.

سألها: لماذا ضحكت حين انتهيت من العزف؟

قالت وهي تتجرع رشفة كبيرة من الشمبانيا: لقد تذكرت ما قالته لي الراهبة ذات يوم، إن مستقبلاً مشرقاً ينتظرني.

قال مؤكداً قول الراهبة: أجل، معها حق سناء، أنت فتاة خارقة، تستأهلين أفضل عيشة، أمسك يدها، ومشيا متلاصقين، كانت الشمبانيا ساعدتهما في إزالة الحرج بينهما، وتساءلت كم من الأشهر أو السنوات ستستمر علاقتها مع رئيسها وممولها، وصعب عليها تحديد الإجابة، تنبهت لصوته يسألها: أين تفضلين الجلوس في الصالون الأول أم الثاني؟

ردت بمرح: أليس هناك صالون ثالث؟

ضحك قائلاً: لا، لكن في البيت الجديد هناك أربعة صالونات.

وسألته بحقدٍ واحتقارٍ: ومتى سينتهي إكساء البيت الجديد؟

قال بحماسة: الله أعلم، المهندس المشرف يقول ستة أشهر ويكون جاهزاً.

قالت بالاحتقار نفسه: أوه ستة أشهر كثير؟

- معك حق، لكنك تعلمين صعوبة استيراد السيراميك، وورق الجدران الأجنبي، إلى ما هناك من لوازم.

اقترحت أن يجلسا في الصالون الأول حيث يمكنها أن تتأمل اللوحات وتسرح بنظرها عبر واجهات الزجاج، لترى المدينة ممتدة تحت نظرها.

غرقت مجدداً في نسيج الأريكة الطري، كان المشروب الحامض قد غزا دمها وجعل أعصابها تسترخي، جلس إلى جانبها وأخذ يقبل يديها، قال لها أحبك. كانت تنظر إلى صورته

المنعكسة في الزجاج الدخاني، وتسخر من طريقته المسرحية في التقرب منها، وتأملت صورتها جميلة متألقة فازدادت ثقة بنفسها، وتساءلت إلى أي حد يمكن أن أؤثر عليه؟

سألها: أحب أن أعرف شعورك نحوي؟

سألته بسخرية مبطنة: أيهمك كثيراً شعوري نحوك؟

رد بآلية: أجل.

قالت: لا أظن.

نظر إليها باستغراب وقال: كيف؟

قالت بثقة: أنت رجل متزوج ورجل أعمال ناجح، وأنا أعرف علاقاتك النسائية السابقة و...

قاطعها محتداً: أنت مختلفة، صدّقيني، لا تقارني نفسك بغيرك من النساء.

ضحكت وقد أخذ شعور بالعبث واللاجدوى يعربد في داخلها.

تجرعت الشمبانيا حتى القطرة الأخيرة وقالت له: أتعرف! شيء جميل أن تجلس في بيت مدفأ بالشوفاج، تتحرر من ثقل ملابسك، لو تراني في البيت كيف أبدو ألبس جوارب صوفية، وروباً سميكاً وشالاً من الصوف، وأتحلق مع إخوتي حول المدفأة الوحيدة الأثرية ونرتجف من ماء الحنفية البارد، ودوماً نسخن الماء للاغتسال والجلي، كانت تتكلم بصوتٍ رخو من تأثير الكحول وكأنها تحدث نفسها، لم يبدُ عليه أنه يتابع حديثها أو يفهمه، كان يتأمل عنقها الأبيض ويتمنى لو يفك أزرار قميصها الوردي الشفاف وكانت تشعر برغبته وتتملص منها، لكنها تعرف

www.mlazna.com-رياح الشرق

أنها ستوافق بالنتيجة، وأن هذا الموقف كانت تفكر به منذ أكثر من ستة أشهر منذ قبلها لتعمل عنده في مكتبه التجاري، قالوا لها يمتدحونه "يتاجر في كل شيء" تقدمت للعمل عنده بعد خمس سنوات من انتظار الوظيفة، وقابلتها سكرتيرته، امرأة في الخمسين عانس، لا تزال تجاهد للاحتفاظ بجمالها.

سألتها بخفاء: أنت سناء؟

أجابت باختصار: نعم.

- حاصلة على شهادة جامعية؟

- نعم.

- تتقنين الفرنسية والإنكليزية؟

- نعم.

- تجيدين الضرب على الآلة الكاتبة؟

- أجل.

عرفت بحدسها الأنثوي أنها نالت إعجابه، وإنه سيقبلها للعمل عنده، وسألها ماذا عملت من يوم حصولها على الشهادة الجامعية في الأدب الفرنسي، أجابت باقتضاب: لم أعمل من قبل، أطرقت رأسها وهي تفتكر سنوات الحرمان، وكيف أنها فكرت أن تؤلف كتاباً عن نفسية المحروم، وهي تمتلك خبرة خمس سنوات من الذل والقهر، ووجوه مختلفة كلها لكلمة كافرة وحيدة هي الفقر.

قال لها متصنعاً اللامبالاة: سيكون عملك محصوراً في مقابلة العملاء أثناء غيابي، وفي الرد على الهاتف وقد طلب منك ترجمة بعض الأوراق.

في الأشهر الأولى كانت تراقب هذا العالم الغريب عنها

تماماً، الصفقات والأرباح بالملايين، الأسفار، الثياب الفخمة، الأحلام التي تصير واقعاً بلحظة، وهي تجلس وراء مكتبها تقرأ المجلات أو تترجم بعض الأوراق، ويأتي المدير بأوقات لا يمكنها أن تتنبأ بها أبداً، فقد يصادف أن يحضر إلى المكتب في الصباح الباكر فتراه، وقد لا يأتي أياماً متتالية ثم يحضر فجأة، ولا ينصرف أبداً كأنه قرر الإقامة إلى الأبد وراء مكتبه.

أكدت لها الأيام أنه معجب بها، يتمنى لو تصير عشيقته، فشارت كرامتها وتحسبت لمواقف لم تحصل، وعزمت أن تلقي مفاتيح المكتب في وجهه لو حاول التحرش بها، ستقول له: لن تمسني أبداً فكرامتي فوق كل اعتبار، وستمضي غير آسفة على فقدان الوظيفة، هكذا يجب أن تتصرف الفتاة الشريفة المثقفة، ابنة الأسرة التي لم يدخلها قرش حرام، والتي ارتضت للتقشف لدرجة النسك متمسكة بأهم شيء في الحياة - الأخلاق - الأخلاق بالدرجة الأولى حتى لو يبست من الحرمان، ولكن أملها خاب، ليس بالموقف الذي انتظرته من رب عملها، بل من نفسها، بردود فعلها، فرئيسها كان في عقده الرابع، ثرياً، يحصل على كل شيء بالمال، صحيح أنه ليس متعلماً، وقال لها ذات يوم يتفاخر:

- أتعرفين أنا لم أحصل على الشهادة الإعدادية، لكن الله أعطاني ورزقني، والتجارة مربحة أكثر من العلم، ما رأيك؟

لم تردّ، كانت تعلم أن كلامه صحيح للأسف. وأخذت تنتظر ذلك اليوم الذي سيتحرش بها، ستنفض كاللبوة، وستقول له كما يفترض أن تقول:

- يا قدر صحيح أنك ثري وأنا فقيرة، لكني أملك كرامة، شعوراً لا يحسه أمثالك، فأنت حمار محمل مالاً.

ولكن هذا اليوم لم يأتِ، وحين دعاها إلى مكتبه ذات يوم، وما كان أحد غيرهما استنفرت وقالت لنفسها سأريه الآن من أكون. لكنه طلب منها بلباقة كلها أن تنزل إلى السوق لتشتري ثلاثين قلماً فخماً هدايا للعملاء، وأعطاها رزمة من النقود، وقال لها: تصرفي، عندي مشاغل كثيرة، سأعتمد عليك.

تسلمت المال مذهولة، وسألته: أي نوع من الأقلام تريدني أن أشتري، وما هو الحد الأقصى للسعر؟

قال: أفخم الأنواع، باركر، شيفر، السعر لا يهم.

أمسكت رزمة النقود بيدها، وللحظة تخيلت أنها تملكها، وانتابها شعور بالاستقرار والسعادة، انصرفت من مكتبه وهي تتساءل لماذا لم يتحرش بها؟ لكأن أملها قد خاب، عجباً! أماكانت تقرأ الرغبة في عينيه دوماً، وتضبطه كيف يتلصص بالغضب يعصف بها كأن أنوثتها طعنت في الصميم، فها قد خلا المكتب، ولم يكن سواهما موجودين ثقيلين حقيقيين، فلم يسمعها كلمة غزل واحدة، ولم يتحرش بها أتراها كانت واهمة، أما تراه منشداً لها يتمنى التقرب منها؟

وصلت المكتبة الفخمة ودخلت بثقةٍ وهي تشعر أنها صاحبة النقود، فتحت حقيبتها وابتسمت رغماً عنها وهي تتأمل رزمة المال. لأول مرة تخاطب البائع بثقة وقد تلاشى شعور الخوف من السعر الذي سيطلبه، قالت له:

- أريد أفخم أنواع الأقلام لو سمحت.

نظر إليها باحترامٍ وقال: أي نوع مثلاً؟

ردت: ماذا عندك، باركر، شفير...

اتسعت ابتسامته وقال: عندي تشكيلة أقلام باركر رائعة، فضي، ذهبي، أسود، كحلي...

اختارت ثلاثين طقماً، وطلبت من البائع أن يغلفها بأوراق الهدايا، كان البائع منشرحاً وانطلق لسانه بعد أن حسب الثمن، قال يحدثها: أتعرفين يا سيدتي أجمل هدية الأقلام. إنها تظل دوماً فالإنسان لا يستغني عن القلم! إنه استعمال يومي.

ردت بسخرية: أتعتقد أن الإنسان لم يستغن عن القلم حقاً!

لم ينتبه للجانب المبطن من حديثها، عدت النقود وسلمتها للبائع. هرول أمامها يفتح لها باب المكتبة، أمكنها أن تحس للحظات أنها سيدة مهمة محترمة يسعى الجميع لمراضاتها، وفي طريق العودة وقفت طويلاً تتأمل الواجهات، يشتاق جسدها لفستان جميل، لحذاء مريح، وتأرجحت مشاعرها بين غضب عاصف وبين رغبة عميقة في البكاء، وحين وصلت إلى المكتب كان داخلها محتقناً كبخار لا يجد منفذاً للانطلاق.

كانت شاحبة ومرهقة كما لو أنها لم تنم منذ أيام، قدمت له كيس الهدايا، وفتحت حقيبتها لتعيد له ما بقي من النقود، أخذ الكيس شاكراً، وحين همّت بالانصراف ناداها برقة:

- سناء، انتظري.

نظرت إليه بشرود، كأنه ليس حقيقياً أمامها، أحست أنها لم تعد شجاعة مستنفرة كالسابق، وأنه لو تحرش بها الآن فستحتاج لمجهود كبير كي تصده.

قال: أرجوك اقبلي مني هذا المبلغ، هدية.

قالت ببرود: وما المناسبة؟

- في كل عيد أقدم هدايا للعملاء وللموظفين عندي.

كانت نظرتها تتلوى فوق يده الممدودة، وبدا لها كأن دهراً قد مرّ وهي تتأمل يده الممدودة، افتكرت الحذاء المريح الذي تحتاج إليه، وأسرع عقلها ينجدها، إنه يقدم الهدايا للجميع، فلماذا لا تقبل منه الهدية والعيد قريب، وأي ضرر أن تدخل البهجة لقلب إخوتها بشرائها علبة حلويات فاخرة.

امتدت يدها لتأخذ ورقتي النقود من فئة الخمسمئة ليرة، تذكرت يوم قبولها لتدرس ساعات لغة فرنسية في إحدى القرى البعيدة، كانت تركض لتلحق الباصات القديمة وتنحشر وسط العمال وتتحمل تحرشاتهم حتى تصل إلى المدرسة، وتعطي الدروس وتعود منها تعبة إلى البيت، وفي آخر الشهر سلموها ورقتي نقود من فئة الخمسمئة ليرة، وحسبت أنها تكلفت مواصلات أكثر من ستمئة ليرة فتركت التدريس.

اشترت الحذاء الجميل، كانت سعيدة وكئيبة في وقت واحد وكان وجهها يتقلص تقلصات لم تنجح في تحديد نوعها أهي إنذار بالبكاء، أم هي ضحك حقيقي كادت تنساه، بل نسيته فعلاً، وهي مسجونة خمس سنوات في بيت أهلها العتيق لا تمتلك قرشاً في حقيبتها؟!

بعد أيام استدعاها المدير، كانا منفردين في المكتب الواسع، تحفزت هذه المرة، وتوقعت أن يتحرش بها، وأكدت لنفسها أنه كان ذكياً فقد أعطاها المال معتقداً أنه ملك زمامها، ستصرخ بوجهه وسترمي مفاتيح المكتب أمامه، وتقول له بتفاخر: لن تشتريني بألف ليرة يا قذر لكنه طلب منها هذه المرة أن تعطي ابنه دروساً خصوصية في اللغة الفرنسية. كان يحدثها بلباقةٍ واحترام،

قال: أجل وفاة أعز صديق لي.

غص وهو ينقد السائق أجرته: مصروف طعام عن يومين! كانت الأرض غافية يغطيها الضباب الصباحي، ويحف بها هسيس الموج، كحفيف قبلات خافتة، تمرغ في ترابها وأخذ يبكي كطفل انتزعوه عنوة من حضن أمه، بكى بدموع المعذبين كلهم، ومن أجهضت أحلامهم كلهم، بكى حلمه الذي عمره أكثر من ربع قرن، هدّه الانفعال، تحامل على نفسه ومشى وهو يحس أنه محموم، صار كل شيء فيه بلا نقاء، وكل حركة من حركاته تشاكسه وكأنها تتحداه، فقد التناغم والسلام بينه وبين نفسه، تحولت روحه لساحة معركة، وصم طنين مبهم أذنيه، كأنه صدى لشجار دائم في روحه.

كان يشعر بألم من يُنازع، إنه ينازع حقاً، هذا أدق وصف يصف به نفسه، لم يعد يجد أية متعة في تراكم الأيام المتماثلة كحبات المسبحة ماذا ينتظره سوى الموت. صار يرزح تحت نوب من كرهه لذاته، وصار يطلب من الله أن ينجيه من عذاب الشخص الجديد الذي صاره، هاله مقدار العذاب والخيبة والتشاؤم والترق في أعماقه، تساءل: أكانت هذه المشاعر كامنة في روحي أم ولدت بعد قرار الاستملاك؟ لم يعرف لماذا صارت تستهويه قراءة صفحة الوفيات والحوادث في الجريدة اليومية، هل يجد عزاءه في من خسروا حياتهم كما خسر أرضه؟

ذات صباح أفاق على شعور ثقيل باليأس، عجز عن افتعال ابتسامة بينه وبين نفسه، وفي مقهى الرصيف الذي يقصده كل صباح بعد إحالته على التقاعد انضم إلى رواد المقهى العاطلين أو المتقاعدين مثله، نظر في الوجوه المطفأة حوله، أحس كم

وطلب إليها أن تصنع القهوة فهو يشكو من صداع، وجلسا يرشفان القهوة وهو يحكي لها ماضيه البطولي في محاربة الفقر، وكيف نجح وصار ثرياً وكيف ضرب ضربات ربح من ورائها الملايين. كانت تحتقره وتعرف أنه لص ومنافق، لكن وجهها لم يكف لحظة عن الابتسام له بكل ودٍّ واحترام زائفين.

تعرفت بزوجته وأولاده، قالت لأمها: لم أجد أغبى من ابنه، إنه حمار، تصوري يا أمي لا يستطيع أن يركز لحظة واحدة، أن ذهنه مبعثر كحفنة رملٍ تذريها في كل اتجاه.

ردت أمها: هكذا الدنيا، لا أحد كاملاً، إما فقير ذكي، أو حمار غني.

وعلى بساطة هذه الجملة فإنها انتفضت وتوقف ذهنها طويلاً عند هذا الكلام وقالت محتجة:

- ولكن هذا ظلم؟

- أوه يا ابنتي هذه الدنيا، منذ الأزل هناك الغني والفقير.

وردت بحدةٍ: لا، هذا غير مقبول أبداً، فهل يعقل أن يملك هذا الحمار الغبي هذا المال كله!

بعد شهرين من تدريسها لابنه، لم يسألها كم تريد ثمناً للدروس الخصوصية، اجتاحها شعور بالسخط والغضب، وتساءلت: أيعتقد أني سأعلم ابنه الغبي مجاناً، وأحست أنها مستغلة، لكنها فوجئت ذات عصر بباب بيتها يقرع وبحمالين يحملان غسالة أوتوماتيك قالا إنها من المعلم، وإنه سيأتي بعد نصف ساعة، ليزورهم، انتابتها حالة من الهياج، فلم تعرف كيف تتصرف، لكنها كانت ترتعش بسعادة غريبة، كما يرتعش جسد من الحمى، قالت لأمها:

www.mlazna.com-رياح الشرق

- لقد أهدانا غسالة أوتوماتيك مقابل تدريسي لابنه.

صاحت أمها غير مصدقة: غسالة!؟

ونابعت لاهثة: أسرعي رتبي البيت، سيأتي الآن، آه كيف سنستقبله في بيت حقير كهذا.

ألقت ثيابها القليلة على السرير وحارت أي فستان تلبس، أرادت أن تبدو جميلة فاتنة، أحست أن أنوثتها تشع من مسامها كما يشع الدفء من الشمس، وقالت لنفسها: إنه رجل طيب سيدخل بيتنا أي يحترمنا، وتذكرت والدها بحزن أليم، لقد قتله الفقر، صحيح أن الأطباء أجمعوا أنه مات بسكتة قلبية، لكنها تعرف وهي أقرب الناس إليه أنه اختنق من الهم.

دخل المعلم، وجلس على الأريكة اليابسة، وشرب القهوة وهو يتأملها بدفء وشوق، ارتعشت من نظراته، امتدحها كثيراً أمام أمها، نظر بشفقة إلى يدي أمها المشققتين، قال لها:

- أن الأوان لكي ترتاحي يا أم سعيد.

وبعد نوبة السعادة العصبية التي حلّت بها بعد دخول الغسالة الأوتوماتيك إلى البيت الفقير، أصابها هبوط حاد، أحست أن داخلها خواء، وأنها تسمع صوت نحيب بعيد، كيف قبلت هذه الهدية؟ كيف فرحت لهذا الحد؟ وأمها تصدق أن غسالة غالية كهذه تكون ثمناً للدروس؟! أم أنها تعبت وما عادت قادرة على التفكير، ما عاد جسدها يتحمل أن تغلي الماء وتحمله في وعاء كبير وتجلس تفرك الغسيل قطعة قطعة بالماء المغلي والصابون، ثم تشطفه وتعصره وتنشره، يداها تتورمان وتتشققان، ولكن، تاه تفكيرها، وافتكرت أنه يلتزم معها حدود الأدب، لم يمد يده ليتحرش بها، ولا لمح إليها بالكلام، ولكنها تفهم نظراته جيداً،

إنه يتمنى امتلاكها وتستطيع أن ترى الذئب الجائع قابعاً في أعماقه متنكراً بهيكل رجل أنيق.

لم تنم تلك الليلة، وفي اليوم التالي قررت أن تواجهه، ستقول له بصراحة، إن الغسالة لا يمكن أن تكون ثمناً للدروس، وأنها لا تستطيع أن تقبل هدايا غالية، وإذا ردّ بسخرية: لكنك قبلتها البارحة؟ ستجيب بكل ثقة: لقد أخطأت، والآن سأصحح الخطأ. لكنها استيقظت على صوت الغسالة تعمل، كانت أمها سعيدة، وقد ملأت الغسالة بالثياب المتسخة وقالت لها: يا سلام يا سناء، سنوات وأنا أحلم بالغسالة، سنوات طويلة، خرجت ولم تقل شيئاً.

لم تستطع أن تكلمه، كان المكتب يغص بالعملاء والموظفين، طلبها بالهاتف وأخبرها على عجل أنه دعا مجموعة من العملاء الفرنسيين إلى الغداء في بلودان، ويريدها أن تكون معه للترجمة وأكد لها أن تكون جاهزة تمام الساعة الواحدة والنصف ليصطحبها معه.

كان الغداء في فندق بلودان الكبير المطل مباشرة على الوادي والطبيعة الفاتنة تكشف بسخاء عن سحرها وفتنتها، قامت بسرور بالغ بدور المترجمة، ولمحت نظرات الإعجاب في عيون الفرنسيين، كان قد دعا أربعة عشر شخصاً للغداء، كلهم من رجال الأعمال والتجار، وأحست أنها نجمة تلمع وسطهم وهي الشابة الحلوة المثقفة، كانت الصفقة التي يتفقون على تفاصيلها هي استيراد نوع متطور من الألمنيوم أرخص وأمتن من الألمينيوم المستعمل، وأبدى رئيسها في العمل الرغبة الشديدة في إنشاء معمل في دمشق تحت إشراف مختصين فرنسيين، وقال إنه مستعد للتكاليف كاملة.

لأول مرة تتناول طعام الغداء في مطعمٍ فخمٍ، وأسفت على بقايا اللحوم والأسماك التي بقيت على الطاولة بكثافة، وفي طريق العودة كانت وحدها تجلس بجانبه في سيارة البويك الزرقاء، كان وقتاً مثالياً ليبوح بعواطفه دون أن تمتد يده لتلتقط يدها، قال لها على ألحان موسيقى أجنبية هادئة، إنه مفتون بها من أول مرة رآها فيها، ولا ينفك يفكر بها وإنها تستأهل كل خير، ويتمنى أن تعيش بأفضل مستوى، وشكا لها وحدته، وفشل زواجه، وأنها أمله الوحيد وهو يقترب من عقده الخامس، وأنه يتمنى أن يكون خاتم سليمان، تأمره فيلبي، كانت تصغي وصورة أمها فرحة بالغسالة لا تفارق خيالها بل تنتظط أمها على الطريق، وصور إخوتها يرتجفون من البرد وهم يقطعون ساحة الدار العربية العتيقة ليدخلوا الحمام المظلم، أو المطبخ المهلهل، تتراقص في ساحة رؤياها الواسعة، واستطاعت بثوانٍ أن ترى حياتها مفرودة أمامها، الطالبة، المتفوقة الموهوبة بالعزف على البيانو، خريجة الآداب، الحاصلة على درجة امتياز، هي نفسها الشحاذة الفقيرة التي لهثت طويلاً وراء وظيفة لن تحصل عليها أبداً، آه الغسالة الأوتوماتيك تغسل وحدها، تغلي وتنظف وتعصر، أغمضت عينيها وهي لا ترى سوى الظلام وحين فتحتهما كانت الطبيعة مثلها تغرق في الظلام.

حين أوصلها إلى البيت قال لها وعيون الرغبة تنصب حولها شركاً محكماً: سناء أنا فخور بك، لقد كنت اليوم فرنسية أكثر من الفرنسيين. وقبل أن تغلق الباب وراءها، قال لها برجاء:

- سناء فكري جيداً بما قلته لك.

المعادلة صريحة واضحة وعليها أن تقرر. أتاها صوتٌ حالمٌ بعيدٌ يعيدها من خيالاتها الكثيفة: إيه أين سرحت؟ قالت وهي

تتناول كأس الشمبانيا وترشف منها رشفات صغيرة متلاحقة:

- أتعرف، يبدو أن الطوابق العالية تطلق الخيال.

اقترب منها، وطبع قبلة طويلة لزجة على عنقها، قال بهمسٍ كالفحيح: لقد أطلقت خيالي، من أول مرة رأيتك فيها.

اقشعر جسدها للحظة، وهمت بالانتفاض، لكنها تجرعت دفعة واحدة كأس الشمبانيا، وأحست أنها تسترخي وتبتسم، واحتوت بنظرها المدينة اللامتناهية المطلة من خلال واجهات الزجاج العريضة، كان جسدها يتحرر من أثقاله، ربما بفعل سريان الكحول في دمها، ومن دفء الشوفاج اللذيذ، تمنت لو تفتح الزجاج، وتطير بغيمة تائهة، تمدد على الأريكة مسنداً رأسه إلى حضنها، تأملته ووضعت يدها على رأسه، وسألته ساهمة:

- ألا زلت تعتبر نفسك خاتم سليمان؟

مدّ يده يفك أزرار قميصها ويقول بنفاد صبر: اطلبي ما تشائين.

أغمضت عينيها وهي تتخيّل أنها تغوص في أعماق غيمة شاردة.

حلم مستملك

كل يوم كان يفكر مراراً بالموت كحلٍ وحيد وممتاز لكل اختناقاته وأزماته، فيتخيّل أن تهرّبه للسنة السادسة من ضريبة التنظيفات - إضافة لتزايد قيمتها كلما تأخر بدفعها - لا حلَّ له سوى الموت، أن يدفع فلتتراكم الضريبة، سنة بعد سنة حتى يغور في الرحم الدافئ الرطب - التراب، كان يسطر نشوة جملة: من التراب وإلى التراب نعود، لا يعرف سرّ نشوته أهو سلاسة الكلمات، أم موسيقاها، أو لأنها تختصر الحياة بأكملها مبيّنة اللاجدوى والعبثية الساخرتين لوجه الحياة الحقيقي.

من كان يستطيع تعزيته عندما خسر حلم حياته الذي عمره ربع قرن حين انقضَّ خبر استملاك قطعة الأرض الوحيدة التي ورثها عن والده سواه؟ الموت، يومها عاد إلى بيته والدنيا سوداء حوله بل إنه استغرب كيف مشى من مكان عمله إلى بيته دون أن تدهسه سيارة أو يسقط أرضاً، إنه متأكد أن حالة عمى أصابته، وحين دخل إلى بيته مترنحاً من المصيبة وتهاوى على الأريكة وورقة الاستملاك في يده، لم ينتبه إلاّ والطبيب يزرقه بإبرة في وريده، ما الذي جرى؟ لا يتذكر، قالت زوجته بأنه ترنح وهو يدخل الحمام وكاد يسقط.

قال الطبيب بأن ضغطه وصل إلى الحد الذي يهدد بانفجار

www.mlazna.com-رياح الشرق

شرايينه من الغيظ، حاول الأصدقاء والمقربون تعزيته: المهم صحتك يا رجل، كدت تموت من هذا الخبر، فلتذهب الأرض إلى الجحيم، لن تأخذها معك بعد الموت. لأيام لم يكن قادراً أن يحس بشيء كان مفجوعاً، منبطحاً تحت ثقل الكارثة، دفعة واحدة استملكت أحلامه، كانت هذه الأرض التي تضاعفت قيمتها أكثر من مئة ضعف منذ ورثها عن والده تعني له الرخاء والاستقرار والأمان والمستقبل، إنها تساوي الملايين، وكانت تسليته الوحيدة أن يفكر بطرق أو باحتمالات استثمار الأرض، هل يبيعها ويشتري لكل واحد من أولاده بيتاً وسيارة، أم يستثمرها مع متعهد ينشئان فيها فندقاً فخماً أو فيلات سكنية، أو يستسلم لإغواء عرض التاجر السعودي الذي يحاول إقناعه بإنشاء قرية سياحية في أرضه خاصة أنها مطلة على البحر؟

ياه كم كان يشعر بمتعة وهو يحس أنه شخصان في شخص، فهو الموظف المسكين الذي يذهب إلى عمله كل يوم راكباً قدميه، ولا يملك سوى راتبه الذي ينتظره على أحرّ من الجمر ابتداء من الأسبوع الأول من كل شهر! وهو بالوقت نفسه المليونير الذي يملك أرضاً تساوي الملايين، والذي ينتظر أن تزداد قيمتها أكثر وأكثر مع مرور الزمن، عندها سيبيعها أو يستثمرها، لكن حمله قصف دفعة واحدة بقرار الاستملاك، وأعطوه بعد عشر سنين ثمنها - كما قدروه - كَسَرَ نصف دزينة من الصحون وهو يجعر وقد انتجبت أوداجه: "قبضت من الجمل أذنه" فما قبضه بالكاد غطى نفقات زواج ابنه:

استئجار شقة لمدة عامين، وفرش البيت بأثاث بسيط. لم يكن قرار الاستملاك خيبة عظيمة فقط، بل إنه أحدث شرخاً هائلاً في

شخصيته، لم يكن يعرف أن صفاته كلها، وطريقة تفكيره ومزاجه وتعامله مع أسرته والناس، وفهمه للحياة، هذا الخليط كله قائم ومرتكز تماماً على الأرض، فالثقة التي يذيعها حوله كان مبعثها اطمئنانه اللاواعي وإحساسه المستمر بأن الأرض تدعمه وتؤمن مستقبله ومستقبل أولاده، والضيق المادي الذي كان يشكو منه زملاؤه في العمل كان لا يشعر به تماماً رغم أنه يرزح تحت وطأته، لأن الأرض كانت تبلسم ضيقه وتعده بفرج عظيم.

بعد أن استملك حلمه أحس أنه نسف من أعماق كيانه، عليه الآن أن يعيد تشكيل نفسه دون أن يضرب أساساته في أرضه - حجر الأساس في شخصيته - كان عليه أن يتعرف إلى الشخص الذي صاره بعد قرار الاستملاك، وجد نفسه تائهاً، ضبابياً، غريباً عن ذاته، ياه كيف سيتعرف على نفسه بعد أن نُسف حلمه؟ كيف ستكون صورته وقد انتفت ضمانات المستقبل المشرق الواعد بالبحبوحة والثراء؟ أين ستهيم أفكاره وأحاسيسه بعيداً عن أرضه؟

أذعن للشخص الجديد الذي صاره، وجد أنه مشروخ بجرح ثخين لن يندمل وأنه معلّق بين السماء والأرض، وكل ما حوله أسود، كان يتنفس غماً ويزفر يأساً، وأحس مع الوقت أن أولاده أيتام، لا يستطيع أن يتعهدهم ويساعدهم في بناء مستقبلهم، عليهم أن يكافحوا للحصول على الرغيف، وتخيل أن عمرهم سينصرم وهم محشورون في البيت الضيق، حتى تنتهي السنوات وتغور الأجساد في الأرض، لم تبدُ له الحياة حقيرة وتافهة كما بدت بعد قرار استملاك أرضه، صارت الأيام كلها متشابهة لدرجة التطابق، لا توجد إمكانية للحلم والأمل والبهجة، أحسَّ أنه يزحف فوق أيامه

يرجوها ألا تخذله وتساعده ليطعم أولاده لا أكثر! ما كان يُلهب قلبه من الغيظ كون أراضٍ كثيرة مجاورة لأرضه لم تُستملك!

كان يصرخ صراخاً أخرس: لماذا يا رب؟ لماذا أنا منحوس؟ لكن الرب كان بريئاً من قرار الاستملاك، وكان يسمع صوته حنوناً وساخراً في آنٍ: أنا وهبتُ الأرض للناس بعد تعرف وجهه في المرآة، كم سربله القنوط! ارتسمت حفرتان حول فمه منذ قرار الاستملاك سماها حفرتا الخيبة، حتى ابتسامه تغيرت، كان وجهه يشع بالابتسام، أما الآن فابتسامته أشبه بتكشيرة ألم.

في نهاية مطاف إحساسه بالفجيعة استسلم، إنه لم يعد يملك شيئاً، وتمنى لو لم يملك الأرض أصلاً، حاول أن يتقمص مشاعر زملائه الذين لم يرثوا شيئاً، لكنه لم يستطع تمثل حالتهم تماماً، فالأرض المستملكة تشوش أفكاره، تلوح له من بعيد، تغويه، تدغدغ أحلامه، تئن روحه ألماً غير مصدقة أنه لم يعد يملك الأرض.

فقد القدرة على التركيز منذ قرار الاستملاك، يحاول قراءة جريدة فترتسم صورة الأرض أمامه، يخرج إلى الشارع، يجلس في مقهى رصيف متابعاً الناس في حركتهم اللامجدية، يجد نفسه يتساءل: مَنْ مِنْ هؤلاء يملك أرضاً، ومن لا يملك؟!

لم يستطع أن يزور الأرض بعد قرار الاستملاك، كان يشعر أنه سيموت لو رآها ولو من بعيد، لكنه استيقظ ذات صباح على زقزقة عصفور نشيط، وجد نفسه يسارع بقلب عاشق ويستقل سيارة أجرة قاصداً أرضه، طلب من السائق أن يسرع، نظر إليه الأخير مستهماً طاراً بقايا نعاس عالق بأهدابه وسأله:

- حادث وفاة؟

قلبه سميك كقطعة لبّاد، بدت له المدينة سجناً، أخذ ينفث دخان الأركيلة معترفاً لنفسه بأنها المتعة الوحيدة المتبقية لديه في حياته القصيرة، بدا له عمره المشرف على نهايته سراباً طويلاً يحف بحلم وحيد: الأرض، طارت الأرض، وطار الحلم، وقريباً تطير روحه خارج قفص أضلاعه فارة من سجن الجسد، أحسّ أن الأركيلة تداعب حواسه، غير بعيد عن لمح شاباً وسيماً رغم فقره الصارخ، منثنياً فوق حاوية قمامة كبيرة، استند إلى حرفها ببطنه وقد ارتفعت قدماه القذرتان فوق الأرض، كانت يداه تغوصان في أكياس القمامة يفشلها ويخرج محتوياتها ويأكل، وسرب من الذباب يشاركه الوليمة.

تسمرت أنظاره على الشاب الذي يأكل بشهية كما أحسّه تكاثف دخان الأركيلة بينه وبين الشاب، أحس أن قلبه يغوص في نفق معتم لا قرار له، بدت له الحياة غير مقبولة ولا بأي شكل بتناقضاتها، ترك مكانه واتجه صوب الشحاذ، كاد يختنق من رائحة العفن والتفسخ المتصاعدة من القمامة، لم يعره الشاب اهتمامه، كان يأكل بصلة متعفنة، وجد نفسه يسأله بصوت ميت:

- هل استكملت أحلامك يا بني؟!

رفع إليه الشاب عينين مطفأتين جميلتين، ابتسم كاشفاً عن أسنان منخورة مسودة، ابتسامة عنت الكثير الكثير، أنا لا أحلام لي، الناس قسمان قسم يحلم وقسم يسرق من القسم الآخر أحلامه.

حوار إنساني

الأول، يتنهد بارتياح: الحمد لله أرضيتُ ضميري.

الثاني، يتنهد بحرقةٍ: يا إلهي كيف سأتدبر أموري؟

الأول: أمنت مستقبل أولادي الخمسة، كتبت باسم كل واحد منهم ثلاث شقق وأربعة مخازن.

الثاني: أولادي الخمسة يطلون على الهاوية الفقر يكادون يسقطون فيها ولا أملك وسيلة لإنقاذهم.

الأول: تركتُ لي ولزوجتي ثروة كبيرة، كي نضمن لأنفسنا حياة كريمة، أتعرف يا أخي، أكبر خطأ أن تعطي كل شيء لأولادك، مهما أحبوك، هناك خطر الطمع، ابن الإنسان طمّاع، لو أعطيتهم ثروتي كلها لوضعتُ نفسي في خانة الشحاذين، سيشعرون أنهم يخدمونني ويعطونني من أموالهم، ناسين أو متناسيين أن المال مالي، «يضحك متأملاً الوجه المتغضن بتجاعيد الألم مقابله، لكنه لا يرى فيه سوى نفسه، يقول مقهقهاً»: تصور أنهم يعاملونني الآن بقدسية، يقبلون يدي أتعرف لماذا؟ لأنني أملك ثروة لم أوزعها عليهم بعد.

الثاني: قلبي أعزل، جيوبي خاوية، لا أملك أن أقدم لهم شيئاً، لا أقدر حتى على مواساتهم، ثلاثة منهم يبحثون على وظيفة دون جدوى، رغم أنهم خريجو الجامعات، ابنتي الصغرى مطلقة

اضطرتها للظروف للعمل خادمة في البيوت كي تعيل صغيريها. عادت إلينا مكسورة مُهانة، الكلب زوجها حلم أن يقفز فوق الفقر، تاجر في الممنوعات فزجوه في السجن، والله كنتُ أقاوم أن أسقط في خرافات السعد والنحس، لكنني الآن أحس أنني منحوس فعلاً، فابنتي الصغرى أحب أولادي...

قاطعه الأول: عذراً على مقاطعتك، لكنك ذكرتني بابنتي الصغرى، فمنذ شهرين كان زفافها حديث المدينة كلها، استوردنا الفاكهة من إفريقيا والزهور من إسبانيا، ياه! لو رأيت هذه الزهور تحس أنك لم ترَ أزهاراً من قبل، هل تتخيل زهوراً زرقاء لمّاعة؟ تصور كريستيان ديور صمم لها فستان العرس، لا تسأل عن الكلفة؟ يكفي أن تعرف أنه مرصع بألف حبة لؤلؤ! أما العريس - لعق شفتيه وبرقت عيناه كذئب يتحلب على فريسته - فكامل الأوصاف، عريس لقطة كما يقولون: جمال وعلم ونسب عريق وثروة لا تأكلها النيران، ياه لو حضرت حفل الزفاف، صورته ثلاث مجلات، شهق الحضور حين قدم العريس لزوجته هدية واحدة فقط، موضوعة في علبة من المخمل الأسود، أتعرف ما الهدية؟ شمس ساطعة، ألماسة بحجم حبة الخوخ، قال إن الذهب صار شعبياً، ولا يرضى أن يقدمه لزوجته فقمتها الألماس.

الثاني ينتهد كأنه يشحذ الهواء كي يسعفه بحفنة أوكسجين: الذهب، لقد نسيته فقد بعت خاتم زفافي وخاتم زوجتي، حتى الأقراط الصغيرة لحفيدتي بعتها كي نشتري للصغيرين ثياب المدرسة هل تتخيل مقدار البؤس الذي أحسه حين يكون سعر حذاء الطفل يعادل راتبي التقاعدي! أتعرف كل ما أخشاه أن أمرض، حتى الآن ورغم القهر والذل كليهما لم يصبني المرض

لشدة ما أخشى زيارة طبيب أو دخول مستشفى. ماذا سيحل بي؟ يبتسم كاشفاً عن أسنان مهترئة ولثة متورمة تكفيني عاهة الفقر، أما الجسد فيقاوم ويتحمل كما يبدو.

الأول: ذكرتني بالصحة، كل سنة أسافر إلى لندن، وأدخل مشفى شهيراً يعمل فيه ألمع الأطباء أقضي فيه أسبوعاً يجرون لي التحاليل الطبية كلها لأطمئن على صحتي، تصور أن أحد الأطباء اكتشف أن وحمة في كتفي الأيسر ازداد حجمها قليلاً عن السنة الماضية، فاستأصلها وأرسلها للتشريح المجهري، أتعرف أنها كانت بداية سرطان، قال لي بأنني لو أهملت الفحص الدوري لكان السرطان انتشر في جلدي، يضحك منتشياً ويتابع: أتعرف المال يتحد السرطان لو كنت فقيراً لما تنبهت أصلاً لهذه الوحمة فالفقر يعمي، كنت سأموت دون أن أشعر كيف بدأ السرطان وانتشر.

الثاني: كما يقاوم ألماً كاوياً في صدره: زوجتي المسكينة بتروا ثديها لأنها أصيبت بسرطان الثدي، اعترفت لي أنها أحست بكتلة في ثديها الأيمن، لكنها خشيت أن تصارحني لأنها تعرف أنها ستكلفني مالاً فنحن لا نملك أكثر من ثمن رغيف الخبز ونحس أن مراجعة الطبيب ترف لا نستحقه، طبيبنا الوحيد هو الله هذا ما قالته لي قبل أن ترتاح من عذاب هذه الدنيا وتسلم الروح.

الأول: رحمها الله ماذا أحدثك عن زوجتي إنها تستدعي عشرة أطباء إذا اكتشفت أن شعرها يتساقط أكثر من معدله الطبيعي، صدقني يا أخي إنها امرأة مصابة بالوسواس تصور أنني كثيراً ما أستيقظ على صوت بكائها أسألها: ما بك يا امرأة؟ تقول لي وفرائصها تتقصف رعباً بأنها تخشى الموت، لا أخيفك سراً عرضتها على أشهر الاختصاصيين النفسانيين قالوا لي إن الأثرياء

جداً معرضون للإصابة بمرض اسمه الخوف من الموت، إذ يشعرون أن أموالهم كلها لن تحميهم من الموت، هذا ما يقض مضجعها ويعذبها عذاباً شرساً لا يرحمها لكني عوضت لنفسي بعشيقات رائعات، أنسى معهن مأساة زوجتي التي تعاني رهاب الموت يضحك فيرتج كرشه ويتابع قائلاً: عشيقتي هذه الأيام أجمل فتاة في المدينة عمرها خمسة وعشرون عاماً محامية ناشئة، بيننا تواطؤ رائع، أهديت لها مكتباً فخماً مقابل أن تقدم جسدها.

عجز الثاني عن تخيل فتاة جميلة في حضن هذا العجوز المقرف الذي ينثر لعابه وهو يتكلم والذي تساقطت أشعار أهدابه وحاجبيه حاول تخيل هذا الفم الكريه برائحة المقززة يقبل فم الشابة؟ عجباً كيف تستطيع؟ أجابه عقله بكلمة واحدة: المال. سأله: وأولادك هل يعرفون أن لديك عشيقات؟

ضحك الأول طويلاً قائلاً: فرخ البط عوام، وهم أيضاً لديهم عشيقات، ابني البكر يصرف الملايين على عشيقاته.

فكّر الثاني أن الفقر كان سبباً في موت زوجته، وسبباً في منعه من الزواج ثانية، الفقر نفاه عن عالم المرأة، لسعته صورة أحسها كحرق، تذكر أن ابنته الصغرى تعمل خادمة في البيوت وبأنها أخذت في الفترة الأخيرة تبالغ بالعناية بشكلها وأنها تحضر أغراضاً لطفليها غالية الثمن، حدّق في جليسه وسأله بعينيه: أيعقل أن تكون ابنتي عشيقتك؟ أحس أن الآخر فهم سؤاله ورد عليه بنظرة متحدية واثقة: النساء كلهن قابلات للشراء.

استمر حوار العيون قال الثاني بصوتٍ أخرس وعينين حزينتين: لكن ابنتي شريفة.

لوى الأول شفتيه متشككاً: خادمة شابة وجميلة مطلقة

ومحرومة ما معنى الشرف هنا؟

- اخرس إنها شريفة لأنها ابنة ناس شرفاء، لأنها تشبعت بالمثل والأخلاق.

تسأل عينا الأول بخبث: والمعدة هل تشبع من المثل والأخلاق؟

يسأله الثاني بصوتٍ مرتعش: هل سبق أن كان لديك عشيقة خادمة؟ يحك الأول صلعته متذكراً: الخادمات إنهن شريحة بائسة يكتفين بالطعام والثياب لقد عرفت الكثير من الخادمات.

أخذ قلب الثاني يخفق بعنف، سأل وهو يشعر أن لسانه يلتصق سقف حلقه: هل كن متزوجات؟

أجاب الأول: البعض منهن متزوجات لكن أغلبهن مطلقات ولديهن أطفال جياع تصور يا أخي إحداهن كانت تهبني جسدها مقابل ثمن ثلاثة فراريج سميتها في سري أم ثلاثة فراريج.

تيبس الثاني في مقعده وقد أحرقته صورة ابنته تحمل كيساً فيه ثلاثة فراريج، أحس أن الهواء لم يعد يصل إلى رئتيه ثمة عائق ما، كان يختنق لم يعد قادراً على الكلام، قام مترنحاً يستأذن ببرطمة غير مفهومة، سأله الأول: ما بك يا أخي، ابق لنتابع حديثنا المسلي.

بجهد قال الثاني: آسف أنا متعب.

ضحك الأول قائلاً: طول عمرك تنسحب متعللاً بالتعب مذ كنا صغار في الابتدائية ترى ما سر تعبك؟

الثاني منصرفاً: لا أعرف. كانت صور ابنته تحرقه وخياله يسوطه بصورها عارية في حضن الكهل وعلى الطاولة ثلاثة فراريج

www.mlazna.com-رياح الشرق

مذبوحة ما تزال ساخنة والدم يسيل من عنقها، تحس عنقه كان عرقه لزجاً كدم أبيض تناهى لسمعه صوت زنخ اقشعر جسده حين سمعه: ابق تعال من وقت لآخر لنتساير ونتحدث حديثاً إنسانياً.

صديقي التمساح

سأله التمساح الصغير: أتبكي يا خليل؟

أجاب خليل والدموع تسيل في أخاديد وجهه الممتلئة بالطيبة: أجل.

كان صدره يفرز زفرات قوية، ويحس في كل زفير كم هو مؤلم أن يشعر الإنسان بهذا اليأس كله، رفع عينيه المخضبتين بالدموع ونظر إلى التمساح الأخضر الصغير الذي يحسه أقرب ما في الوجود إلى روحه.

كان التمساح يحدق إليه بعينين سوداوين خاليتين من النظرات، ياه لن يصدق أحد لو قال إن هذا التمساح الصغير صديقه، ألأنه هدية من جدته؟

لن ينسى ذلك اليوم أبداً حين قدمت له جدته هدية في عيد ميلاده السادس، مزق الورق الملون بنفاذ صبر ليكشف عن تمساح صغير ضاحك من اللونين الأخضر والأحمر، علمته جدته كيف يلبس جسد التمساح بكفه ويحرك أصابعه فيتحرك التمساح، اكتشف متعة الدمى المتحركة ماتت الجدة وصار أباً ثم جداً وظل التمساح صديقه المفضل في عالم تبخرت منه الرحمة والتعاطف.

لم يكن يعلم أنه يملك هذا الرخم من الدموع سأل نفسه برقة: أهو التعب يا خليل الذي يجعلك تبكي هكذا؟

كان غارقاً في حنين هائل لأشياء غامضة، غامت صورة التمساح كأنها تذوب في دموعه حدثه بصوتٍ مرتعش: وحدك تعرفني وتشهد عليّ منذ أكثر من أربعين عاماً، تذكر سعادته البعيدة حين كان يلبس التمساح في يده كقفاز ويحركه ويخاطبه ويخلق حوارات لا تنتهي بينهما.

تمخط بكم بيجامته وهو يحدث نفسه بسخرية مرة: والله لم يتغير شيء وحدك تفهمني أكثر من البشر كلهم.

انسكبت أمامه سنوات حياته بسهولة كأنها تتدفق من صدره سنوات متشابهة يلفها سراب تذكر فجأة فكرة عبرت ذهنه عصر هذا اليوم بأنه لن يموت من كثرة مشاغله غابت الفكرة في الازدحام أو ربما ذابت من وهج الشمس الغاضبة، كم يكره الحر أمره مديره أن يصور أوراق الملف بأقصى سرعة ركب قدميه وانطلق بسرعته القصوى إلى محل التصوير كان مراهقاً مكفهر الوجه منهمكاً في تصوير ثلة من الأوراق رجاه أن يصور له الملف وقال إنه سيعطيه مبلغاً إضافياً.

رشقه الصبي بنظرة باردة وقال وهو يتفحصه ليتبين مدى جديته في إعطائه المزيد من المال: هات.

دفع للصبي بضع ليرات زيادة على الحساب وأسرع إلى مديره يسلمه الملف دخل المطبخ ليعد القهوة لسيدة أنيقة أذابت قسوة المدير بجمالها وغنجها انفلتت من فمه شتائم خرساء لأن المياه مقطوعة، صرخ به المدير:

- تعال يا خليل النحس.

خلال ثانية مَثُلَ أمام المدير يتلقى تقريعه.

- الله لا يعطيك العافية صور هذه الأوراق غير واضحة أين عقلك يا أخي اذهب وصورها مجدداً.

أذعن الأمر المدير، لم يحضر القهوة للسيدة الجميلة، نزل ثمانين درجة قفزاً بسبب تعطل المصعد دخل محل التصوير ذاته، قال للصبي بخفاء:

- هذه الصفحات غير واضحة.

أجاب الصبي بغضب: هاتها.

ناوله الأوراق كاظماً غيظه، أخذ العرق يتصبب منه وهو يصعد الدرجات الثمانين، حلم أنه يغتسل بماء بارد منعش، أو يغطس في البحر، لوهلة تمنى لو يغرق في البحر، وستغرق مشاكله اللانهائية معه وسيرتاح. أوف لا راحة للإنسان إلا بالموت هذا ما فكر به وهو يعطي الأوراق للمدير الذي قال له:

- حضر الآن قهوة للسيدة.

سألها بلهجة ذل تعودها حتى صارت من طبيعة عمله كآذن: كيف تشربين القهوة؟

أجابت: سادة.

اندلقت القهوة ولطخت سطح الغاز الأبيض وهو شارد في كلام زوجته الذي استعاده كلمة كلمة، كل صباح تبدأ بمخاطبته بلهجة الأمر الجافة: لا تنسى أن توصي السيد كمال بطلب توظيف ميساء في المصرف، قلبه يحترق على ميساء، ابنته البكر المتخرجة من كلية التجارة منذ خمس سنوات وتبحث باستماتة عن وظيفة، وعده مديره أن يكلم صديقه مدير المصرف بشأن ميساء، في الحقيقة خدمه الرجل، وحدّد له موعد مع مدير المصرف، الذي

قابله بلطفٍ مصطنع هو وابنته، ورغم إحساسه أن مدير المصرف كان يتأمل ابنته بنظرات شبقة غض النظر وهو يرى يد المدير تشد على يد ابنته ويقول لها: راجعيني بعد أسبوع.

قرر أن يذكره هو بدلاً عن ابنته، هكذا أوصته زوجته مؤكدة: يجب أن نلاحق مصالحنا أفهمت يا خليل.

يجيب متململاً: لكن الناس يملون منا، من كثرة الإلحاح.

تقاطعه: لا يهم، يجب أن نصل لأهدافنا.

كلما تحدثت زوجته عن الأهداف، يتخيل الكرة تدخل في الشبكة، إنه لايستطيع أن يفهم أبداً أن هناك أهدافاً، ثلاثون سنة وهو يكدح وراء اللقمة وهو بحالة ذعر من ألا يتمكن من تأمين الطعام لأسرته المؤلفة من أربعة أولاد وزوجته، هل يصح أن يعتبر رغيف الخبز هدفاً؟ إنه دائري وكروي أحياناً، يشبه الكرة التي تتقاذفها الأرجل لكنه يحس أن أرجلاً خفية تتقاذفه هو بدل الرغيف!

اضطر أن يحضر القهوة مجدداً للسيدة الجميلة التي صعقت المدير، شتم نفسه على شروده، وفكر بقلقٍ إن كان من المناسب أن يطلب من مديره السماح له بالذهاب إلى المصرف، تشجع وهو يقول لنفسه: سيسمح لي بالتأكيد كي يخلو له المكان مع السيدة الجميلة، أذن له المدير كما توقع، بل قال له بأنه لا يريد منه شيئاً وبأنه يستطيع أن ينصرف حتى دوامه بعد الظهر.

تخيل أن المدير سيغلق باب المكتب، ويعري السيدة من ملابسها ويمارسان الجنس على الأريكة الجلدية الواسعة، أحس بإثارة شاحبة، تذكر أنه منذ سنوات طويلة لم يعد يقرب زوجته، تحديداً لم تعد هي تقربه بعد أن ابتلى بداء الصدف، ياه ما حيلتي

في مرضي؟ ما ذنبي؟ كان لا ينفك يتساءل بألمٍ ما ذنبه أن ينام على فرشة في الصالون الضيق؟

لكنه مع الزمن اعتاد وحدته مع نفسه، وتآلف مع حياة العزوبية لدرجة أنها الأكثر طبيعة. لكم يكره الحر، وصل أخيراً إلى المصرف مهدوداً من التعب والعطش، تخيل أن أول شيء سيفعله شرب الماء البارد، لكنه سرعان ما نسي عطشه مستسلماً لبرودة المكيف المنعشة، وتركز اهتمامه كله على مقابلة المدير. قالت له السكرتيرة وهي ترمق ثيابه الرثة باستخفاف: المدير يترأس اجتماعاً هاماً ولا يستطيع أن يقابلك.

قال لها متوسلاً: وهو الذي طلب مني أن أذكره بطلب توظيف ابنتي ميساء.

ابتسمت بسخرية لحظها: أعدك أن أذكره نيابة عنك.

سألها وهو يحس كم هو متعطش لحديث إنساني يحمل في طياته أملاً:

- هل وافق؟ أقصد هل سيوافق؟

قالت: لا أعرف، لكن هناك أكثر من مئة طلب توظيف.

جفّ حلقه وتكثف إحساسه بالعطش، حدّق في الموظفة وتوسل إليها بنظرته أن ترد عليه كما يرجو: لكن المدير وعدنا، قال لميساء بأنها كفؤاً...

قاطعته الموظفة باسمة: المتقدمين كلهم من حملت الشهادات الجامعية.

أحس بالتقهقر وهو يهبط الدرج ويعود للحر الرطب، وصل بيته البعيد وهو يلهث، في الأشهر الأخيرة صار يلهث كثيراً، قال له

صديقه بأن هذا دليل مرض قلب، لم يبالِ لسبب وحيد كونه لا يملك المال لمراجعة طبيب سيخضعه للعديد من الفحوصات المكلفة.

ما إن وصل بيته حتى سألته زوجته بلهجة متحفزة للقتال: خير، قال وقد فهم قصدها: لم أتمكن من مقابلة مدير المصرف لأنه يترأس اجتماعاً...

قاطعته وهي منهمكة في فرط الحصرم: يعني لم تره.

- لا. السكرتيرة ستكلمه نيابة عني.

رمت بعصبية عنقود حصرم من يدها، وقامت إلى المطبخ تشتم الظروف والحظ، كان يعرف تماماً أنها حين تشتم حظها فهي تعنيه، لم يكن يجرؤ أن يرد عليها، لعله في أعماقه يتعاطف معها، ألا يكفينا الفقر، ومرضه المقرف الذي يجعل لجلده قشوراً سميكة، إنها تعاني من حرمان متعدد الوجوه، لكن لماذا تصر على إهانته؟!

أحضرت له طعام الغداء المطبوخ منذ يومين، رز بالعدس، وباذنجان مقلي، لم يشعر بجوع ، لكنه ابتلع طعامه في لقمات كبيرة دون مضغ يذكر، حدثته زوجته وهي تدير له ظهرها: أفرط ما تبقى من الحصرم، والله أكاد أموت من التعب.

قال محتجاً: لكن، أنا متعب أيضاً.

ردت بترقٍ: متعب! هل غسلت الثياب حتى اهترت يداك؟ أم هل كويت أكواماً من الثياب؟

قال: حسناً حسناً، سأفرط الحصرم، والله يعطيك العافية.

أخذ يفرط حبات الحصرم التي أحدث صوت ارتطامها بقعر الوعاء إيقاعاً جعله يدخل بحالة تشبه الغيبوبة، شعر بألم مفاجئ في صدره، يعرف أنه ألم الشوق، كم يشتاق إلى ابنه الذي ضاقت

به سبل العيش، وهذه الحرمان، فهج إلى البحر، ترى ماذا يعمل في الباخرة الضخمة؟ حذره من عالم التجارة الذي لا يطمئن له قلبه، لكن ابنه ضحك وقال: لا تخش علي، فأنا رجل شاب في الثانية والعشرين، لا يستطيع أن يهبه سوى حب كبير من قلب أعزل يتلقى صدمات الحياة بصبر.

انبثقت قطرة حمض من الحصرم ودخلت عينه، أحرقتها فسالت بضع قطرات من الدم وانزلقت في خطوط وجهه، لم يمسحها لأنه كان يتابع عمله بآلية، اقتربت منه فادية ابنته الصغرى ذات العشر سنين، وسألته: بابا متى ستشتري تلفزيوناً ملوناً؟

كم أضحكه سؤالها، ربما ضحك لأنها كشفت له كم هو عاجز.

قال: قريباً إن شاء الله.

- لكنك وعدتني منذ ثلاث سنوات!

- آه يا فادية، قالها وكأنها خارجة من بخار روحه المختنقة منذ ربع قرن.

ساعتان وهو يفرط الحصرم، غسل يديه ووجهه وانطلق مجدداً إلى عمله، فكّر هل يطلب من مديره أن يتحدث إلى مدير المصرف. غسل فناجين القهوة ومسح الأرض، ونظف صحن السجائر كان عطر المرأة يغمر المكان، تنشقه بعمق، ياه! في حياته كلها لم يملك زجاجة عطر! بدت له تلك الحقيقة مثيرة ومؤلمة في آن، إنه لا يعرف سوى صابون الغار والعطور ومزيلات الروائح كلها مجرد صور يتأملها في التلفاز والمجلات.

اتصل به مديره يأمره أن يترك المكتب حالاً، ويذهب لإحضار

www.mlazna.com-رياح الشرق

السمك من البائع الذي يتعامل معه المدير، ويأخذه إلى بيت السيدة التي زارته صباحاً، أملى عليه عنوان بيتها، حلم وهو يحمل الأسماك أن يشوي سمكة ويأكلها، تجلت طعماً مبهماً في فمه، يبدو أنه لم يعد يتذكر طعم الأسماك؟! فكّر ماذا لو سرق بضع سمكات من هذا الكيس الكبير المملوء بأفخر أنواع الأسماك؟ لكن - حدث نفسه - لم تلوث يديك يا خليل أبداً، فأي خاطر شيطاني يغريك بسرقة السمك!

تسلل سؤال خبيث إلى روحه: هل أنت شريف مؤمن بالأخلاق أم لأنك تخشى العقاب؟ ارتجفت مفاصله من هذا السؤال، أحس أن انفعاله المبلغ به ليس سوى دلالة على شيء من غش في نزاهته وشرفه.

حين عاد مساءً إلى بيته، كانت مصيبة بانتظاره، ميساء تبكي وتخبره أن فتاة غيرها قبلت في الوظيفة وكانت زوجته تشتم حظها والفقر والنحس.

لم يستطع أن يتفوه بكلمة، أحس أنه يجف كعود، ويصير حطبة سرعان ما تحترق بعود ثقاب، كان يتمنى بجوارحه كلهالو يحترق ويفنى، هرب من نظرات زوجته التي كانت تحب أن تعاقبه بلا رحمة على ذنوب لم يقترفها!

كم هي ثقيلة الحياة، كم هي ثقيلة! جلس على كرسيه المهدود من التعب، مثله تماماً، في المطبخ الضيق يرشف شاياً ويأكل بضع حبات من الزيتون تنبه للتمساح الأخضر الصغير القابع على الرغم منذ نصف قرن، وحده هذا التمساح بقلة الإحساس... والنفاق، يقولون دموع التماسيح! لكن أي زمن هذا يكون فيه تمساح ميت أكثر رحمة من البشر!!

حب على حافة الحياة

لم يعد يملك سوى ذلك الصمت النابض يواجه به الأيام التي تتراكم فوقه، لم يكن عمره الذي قارب التسعين يشعره أنه يحتضر، كان يعرف أن غيابها يعني الموت، فهي نبضة الحياة، فليفتح نفسه للألم طالما لم يعد من أمل بلقياها، وليترك نفسه مذعناً لوجع الذكريات وليسمح لدموعه أن تسير في أنفاق وجهه المغضن بتجاعيد الطيبة، من يعيد له عطرها، ابتسامتها، صوتها وهي تدندن أغانيها، دمعتها وهي تحكي له ظلم الناس لها، من يعيد للشيخ حبيبته، لم يصدقوه حين قال لهم إن القلب لا يشيخ وأنه قدر له أن يحب وهو على أعتاب التسعين؟

كان زاهداً في الدنيا، أسير وحدته القاسية حين التقاها في قفر وحدته المثالي للتأملات واستعادة الذكريات، كان يشعر بذل الشيخوخة ويمازح نفسه ساخراً: كل شيء فيك مرقع يا عدنان، أسنانك الاصطناعية، عيناك اللتان زرعت فيهما عدستين، وفي أذنك اليمنى سماعة بدلوا لك مفصل الورك حين سقطت وكسرته، ما أنت سوى حطام رجل وهؤلاء قساة القلوب أولادك وأحفادك ينتظرون وفاتك، لا يمكنك أن تخدع نفسك وأنت تقرأ وجوههم وابتسامات النفاق التي يواجهونك بها، وقد أدركت نواياهم بحدسك فامتنعت عن التنازل عن البيت الكبير وعن الكافتيريا الصغيرة التي يديرها

أحد أحفادك ويعطيك كسرة من الأرباح. حكمة السنين علمتك أن تقرأ نفوس البشر، أن تطل على هاوية القسوة والأنانية في نفوسهم يا للمرارة وأنت تعترف لنفسك أنك لو تنازلت لهم عن البيت والكافتيريا لطووك كما يطوون سجادة قديمة ورموك في غرفة ضيقة أشبه بالقبر مبتهلين إلى الله لتسريع موتك فما فائدة شيخ اقترب من التسعين يعيش في منزل واسع يساوي الملايين.

كان يعرف أن كلاً منهم - أولاده وأحفاده - يخططون عشرات الخطط لاستثمار بيته، لا يعوقهم سوى حياته، سوى تعاقب أنفاسه ونبض قلبه الرتيب فليمت، يسمعها تدوي في صمتهم المطبق وهم يزورونه كل يوم جمعة مدعين حبه، ومقدمين له ولاء طاعتهم الكاذب، فليمت، يقرؤها في حدقات عيونهم الضيقة من الغيظ لماذا تعيش كثيراً أيعقل إننا ننتظر موتك منذ عشرين عاماً.

ياه! لماذا لا يلبي الله صلواتنا، ألا يقولون أن الله يلبي الدعاء الصادق؟ لا يمكن أن ينسى ذلك الحوار الذي يقشعر له جسده كلما استعاده بذاكرته كان لا يزال تحت تأثير المخدر، خارجاً لتوه من غرفة العمليات بعد أن بدلوا له مفصل فخده المكسور، كان يسمع أصوات موسيقى بعيدة تصله من فضاء قصي جميل يهيمن عليه اللون الأزرق فيبتسم ابتسامة اقرب للشرود حين صفعه صوت أليف يعرفه إلى حد الوجع صوت حفيده عدنان الذي طالما حمله ودلله ولاعبه لعبته المفضلة بأن يركع ليترك عدنان يمتطي ظهره ويسير به طوال الصالون حتى نهايته التي يسمونها جزيرة المرجان.

ياه يا عدنان لم أكن أعرف أن هذه اللعبة تكشف عن سادية وقمع تبطنان روحك.

أفاق من التخدير بعد أن قذفه صوت عدنان إلى عالم الصحو المرعب صوت معدني جاف وحاقد: كنا نتأمل ألا ينجو من هذه العملية كيف تحمل جسده المهترئ ثلاث ساعات تخدير.

فتح عينيه محدقاً بالنور الذي بهره ولم يسمح له بتمييز أحد اقترب منه يهوذا وقبله قائلاً: الحمد لله يا جدي قمت بالسلامة، تنحى جانباً متعمداً أن يريه أكاليل الزهر. شكره، أجبر نفسه على الاعتقاد أن ما سمعه ما هو سوى هلوسات أما الحقيقة فعدنان الذي سماه في سره يهوذا يريد بيته الكبير ليحوله غلى مطعم يعتقد أنه أحق من المقربين كلهم إلى جده فهو الحفيد الأكبر والذي يحمل اسم جده، كرهت اسمي يا عدنان عدنان على وزن شيطان تمنى في سريرته لو لم يصح أما كان أشرف له لو مات ما معنى حياة تتحول إلى تراكم سنوات؟

هل الانتصار الوحيد للإنسان هو أن يبقى حياً. أحضروها للعناية به بعد أن فقدوا الأمل من وفاته، لسان حالهم يقول: "تجاوز الخامسة والثمانين يبدو أن الموت نسيه" جملة سمعها من زوجة أحد أبنائه، وقرأ صداها في عيونهم وتراكمت كلماتها فوق طبقات الحزن في قلبه، قلبه يتألف من طبقات حزن تترسب طبقة فوق طبقة وكلها هدايا من أولاده. لم يكن يعرف أن القدر سيسخر منه لهذه الدرجة أو ربما أحبه لهذه الدرجة، لقد أحبها منذ اللحظات الأولى التي وقع فيها نظره على وجهها الجميل المغلف بالإعياء امرأة في الأربعين لكنها لا تزال شهية ونضرة في عينها حزن يزيد جاذبيتها تحاول مداراته كل لحظة، كان عليها أن تقضي عنده اثنتا عشرة ساعة كل يوم تأتي صباحاً، وتتركه مساءً، تنظف البيت تطهو له طعامه الخالي من الملح والدسم تغسل ثيابه وتسليه

بقراءة المجلات أو تلاعبه بالورق.

ظل لأيام يتفرس بوجهها محاولاً اكتشاف قرفها منه اشمئزازها من خدمة شيخ يقترب عمره من القرن، لكنه لم ير بذرة اشمئزاز كانت نظراتها طافحة بالورود حتى أنها أدهشته حين أشبعت قطعة قطن بالكولونيا ومسحت رقبته ووجنتيه ويديه، ضحكت ضحكة قصيرة كأنها برزت ما أقامت به بتلك الضحكة، جلست إلى جانبه وقالت له كأنها تبوح بحقيقة لنفسها أنت تحب، كريم ولطيف وإنساني. لم يشم رائحة طمع، استوقفته كلمتها الأخيرة، سألها: إنساني ماذا تقصدين؟

رفعت إليه عينين شاردتين ارتجف فمها، وغشت عينيها طبقت لزجة من الدموع، اجتهدت أن يكون صوتها صافياً دارت تشققاته وهي تقول متهربة من الجواب: سأعد القهوة.

كان ممنوعاً من شرب القهوة لكنه رغب أن يشرب معها قهوة السر، هكذا أحس ولم يكذبه إحساسه لأنها - ومن غير إنذار - تدفقت أمامه دموعاً ساخنة وكلاماً خارجاً من بهاء روحها المتألمة، باحت له بمأساتها يبدو أن عمره المديد أو إحساسها أنه على حفة القبر خفف عنها عبء قول الحقيقة سيموت ويموت اعترافها معه.

حكت له قصتها كيف كان زوج أمها يتحرش بها حين كانت في الحادية عشرة، أحست الأم فأسرعت بالتخلص منها، وزوجتها لرجل يزيدها بثلاثين عاماً عملت خادمة له ولأولاده إلى أن حاول ابنه التحرش بها فهربت من المنزل وطلبت الطلاق. وجدت نفسها مرمية في الشارع وعليها أن تعيل طفلين أنجبتهما، اضطرت بعد أشهر من التشرد والجوع أن ترجع إلى زوجها الذي صار يضربها

متهماً إياها أنها هي التي أغوت ابنه معيداً على سمعها مئة مرة في اليوم: إن الشيطان امرأة.

أخذت نفساً عميقاً وحبسته في صدرها قالت بعد صمت ثقيل: المهم الطفلان يجب أن يعيشا عيشة كريمة. كان سخياً في عطائه وكانت تقدر عطاءاته وكانت تقدر عطاءه لدرجة أن تقبل يديه شاكرة، حفظت مواعيد دواء الضغط والقلب، حضرت له حلويات خفيفة شهية، وعرفته بطفليها اللذين أحبهما أكثر من أحفاده كلهم طالباً منهما أن يناديا جدي. سرى الدفء في أيامه وعروقه وحياته، فلتكن تلك المرأة كفنه، كان يتأمل يدها وهي تمسح زجاج النافذة يتأملها بافتتان وهي خارجة من الحمام مبلولة الشعر وهي منحنية تمسح الأرض ما أجملها، ما أقربها إلى روحه، فليعترف لنفسه بأنه يحبها وبأنها دنياه.

اعترف لها ذات يوم أنها بعثته من رماده وأنه كان ميتاً حقاً من دونها، شكرته وهي تدعو له بطول العمر، تمنى لو يملك الشجاعة ويطلب إليها أن تتزوجه بعد أن طلقها زوجها، سيكون الزواج بالنسبة إليه الدفء والرحمة اللذين حرم منهما، وبالنسبة إليها الاستقرار وضمان حياة كريمة لطفليها. لكنه لم يجرؤ على اتخاذ خطوة واحدة، سيقولون إنه خرف كم أحس بالقهر وهو يعي حقيقة تصلبه: لا يحق لقلب العجوز أن يحب! سحب رصيده من المصرف وقدمه لها، قالت له بانفعال أليم: لن أقبل، لن أسمح لذل الحاجة أن يضطرني للقبول، أنت تعطيني أكثر مما أستحق، هذا المال من حق أولادك.

قال: بل من حق من يحبني ويعتني بعجوز مثلي دون تذمرٍ أو قرف.

استنكرت كلامه قائلة: أنت أروع رجل عرفته في حياتي لكن...

سمع كلماتها رغم أنها لم تنطقها بل تركتها محبوسة في حنجرتها، ماذا لو عرف أولادك؟

قال: ستأخذين المال، فأنت أحق به من أولادي...

كان يحس أن حياته متعلقة بحياتها ومصيره معلق بمصيرها وحين تتركه كل مساء، يجلس مستنشقاً عبقها منتظراً طلوع شمس جديدة تزف حضورها إليه، إنه يتعبد عشقاً في محراب شيخوخته. باغته بعد سنة من الخدمة بسؤال: أتحبني؟ رفع إليها عينين مسهدتين وبرطم بكلمات غير مفهومة. قالت له وهي تضم رأسه إلى صدرها: وأنا أحبك أيضاً صدقيني.

تمنى لو يموت في تلك اللحظة، أية روعة أن يلفظ أنفاسه الأخيرة على صدرها الدافئ، إنه لا يتحمل الحياة بعيداً عنها، كلهم غرباء وحدها عاملته بحنان وإنسانية. الحب بعث الأمل في قلبه، لم يعد يفهم ما معنى أنه في التسعين وقد يعيش عشرة أعوام وربما عشرين وهو في جنة الحب، من قال إن الحبّ والسعادة حكر على الشباب؟ فاتحها برغبته بالتواجد عنده ليل نهار، بأن يتزوجها ويسجل البيت باسمها، غض نظره وأكمل ما لا بد من قوله: من حقك أن تحبي شاباً مثلك، إذا وجدت الشخص المناسب، صارحيني، سأتفهمك، ومن يدري قد أكون ميتاً وقتها، فأجنبك حرج الصراحة.

كان يجب أن يعلمهم عن نيته بالزواج من حبيبته، لم يعرف أنهم سيحجرون عليه وسيتهمونه بالتخريف، طردوها، وألفوا عنها الشائعات والفضائح، هددوها بالسجن بتهمة الدعارة، سحبوه من

www.mlazna.com-رياح الشرق

البيت الكبير وزجوه في مشفى المجانين، الطبيب الذي عاينه مراراً تعاطف معه في البدء ثم لم يعد يقدر أن ينظر إليه، أن تلتقي عيونهما، عرف أنهم اشتروه، دفعوا له كي يكتب أنه مجنون.

كان يقدر ظروفها، تمنى لو تغامر وتزوره مرة واحدة، مرة واحدة فقط، امتنع عن الطعام راغباً بمغادرة الذل والغدر، علقوا في وريده سيروماً، تظاهر أنه قبل إجرائهم العلاجي، انتظر أياماً غارقاً في مستنقع ذكرياته، وجوه أهداها عمره وخانته، حب أتى متأخراً ليهزأ منه أم لينقذه، لا يعرف! سحب إبرة السيروم من يده، أحس بكيانه يختزل ويصير مجرد قلب ينبض بالحب، لكن بلا جدوى، محكوم عليه بنهارات تعذبه، وبمساءات تقبره فليتحرر ليطير خارج قفص الجسد، عساه يلقاها في فضاء ما.

ربط حبل كيس السيروم حول عنقه، وأخذ يسد بطاقته كلها، أحس كيف تجحظ عيناه وتضطرب أنفاسه، ربط طرف الكيس بعارضة السرير المعدنية، وجرّ جسده بالاتجاه المعاكس، أسقط نفسه أرضاً لكي يكون الشد على رقبته أعظم، بعد لحظات رآها تدخل إليه شفافة كشفافية الفجر الأولى، مبتسمة ابتسامة أذابت آلامه كلها، انحنت بجانبه واضعة رأسه على صدرها الدافئ، مسحت جبينه المتعرق براحتها، ثم مسحت جبينه بقطعة مشبعة بالعطر، بكى فسالت دموعه بين نهديها، كانت عبراته لزجة حمراء تتدفق من عينه بوقارٍ مذيبة وجع الذكريات.

تحقيق الذات!!

لم يكن وجيه يطيق قراءة كتب الفلسفة وعلم النفس، حتى المقالات في المجلات والجرائد التي يشم فيها رائحة علم النفس كان يتجنبها بعد أن يمطرها بسيل من الشتائم، كأن يعتبر الفلاسفة وأتباعهم أشخاصاً معقدين، كلامهم طلاسم، وكان يؤمن أن الفلسفة لم تقدم شيئاً للبشرية سوى الكآبة، وإلا ما سرّ الانقباض والتجهم الذي كان ينتابه كلما قرأ بضعة أسطر من مقال فلسفي؟! لكنه حين خرج ذلك الصباح من غرفة المدير وهو يشعر أنه مدمر النفس ومسحوق كحشرة، وجلس إلى مكتبه شاعراً أنه فقد الرؤية حقاً وأن ما حوله كله ظلام، وأنه لم يعد يملك القدرة على امتصاص المهانات من المدير الذي يصغره بعشرين عاماً والذي لا يفقه شيئاً في الإدارة سوى أنه يريد تسخير كل شيء لمنفعته.

أحس بضيق نفس حقيقي وشتائم المدير تطنّ في أذنيه وبصعوبة تمكن بأصابع مرتعشة من فك زر القميص محرراً رقبته من أسر ربطة عنق عمرها ثلاثون عاماً، دمعت عيناه من القهر، ومضت سنوات خدمته في المؤسسة متوجة بالشتائم في السنوات الخيرة بعد أن عينوا المدير الأحمق، إنه على بعد سنوات من التقاعد، يحس قلبه سميكاً وروحه ثقيلة، ماذا جنى من نزاهته وتفانيه في العمل؟!

لم يستطع أن يطهر روحه من سموم كلام المدير كما كان يفعل كل مرة، أحس الإهانات تترسب في روحه طبقة سميكة أحسها كالقطران، كان لا يزال يحسّ لظلام يسبله حين سطع فجأة عنوان كتاب مُلقى بإهمال على طاولة زميله في العمل "تأكيد الذات" كلمتان مكتوبتان باللون الأحمر، والخط العريض، أحس أن روحه المشتتة بالقهر تتجمع حول عنوان الكتاب كما تتجمع الدبابيس وتلتصق بقطعة المغناطيس، ترى ما الذي يغريه في هذا العنوان ويدفعه لالتقاط الكتاب رغم رائحة الفلسفة وعلم النفس الفواحتين منه؟

كان الكتاب قديماً، صفحاته مصفرة، لكن وجيه أحس أنه محموم من شدة الاضطراب، ما إن قرأ السطر الأول: "لسنا معتادين على الانتباه لما يجري في داخلنا".

فجأة أحس أن الظلام حوله تبدد، وأن كل شيء في رأسه يضيء، أخذ يمتص كلمات الفصل الأول عن الأنا "الأنا المشوهة" كما تمتص الأرض المشققة من العطش قطرات المطر، لم ينتبه لتحديقه المفتون بالكتاب إلا حين دخل زميله في العمل، وانفجر ضاحكاً وهو يقول: لا أصدق ما أرى، وجيه يقرأ كتاباً في علم النفس؟

بصعوبة رفع وجيه عينيه عن الكتاب وقال: أود أن أستعير هذا الكتاب منك. فرك صديقه عينيه وقال: لا أصدق ما أرى، منذ متى تقرأ كتباً في علم النفس؟ تململ وجيه وقال:لا أعرف، لكن هذا الكتاب يبدو مختلفاً، أقصد هاماً.

قال صديقه: إنه كبقية كتب علم النفس والفلسفة التي تكرهها.

لم يكن وجيه راغباً بالحوار، عاد يغرق بالكلمات التي أججت قلبه وعقله، معاً، أحس أن لهذه الكلمات مفعول المخلّص، وأنها قادرة بضربة سحر أن تخلق من أعماق يأسه قوة مجهولة يتحدى بها مظاهر القهر واللاإنسانية كلها حوله.

لم يستسلم للقيلولة كعادته بعد الغداء، كان يقرأ الفصل الأخير من الكتاب الذي عنوانه (تأكيد الذات) والذي يبين فيه المؤلف كيف أن أهم واجبات الإنسان تجاه نفسه تأكيد ذاته، أي التعبير عن حقيقة أفكاره ومشاعره دون خوف، والإصرار على نيل حقوقه، والوقوف في وجه الشخصيات السادية والمستغلة التي لا تهدف إلا لتحطيم الكرامة الشخصية للإنسان، وأخيراً يطلب الكاتب بكل رقّة ولطف من القارئ أن يبعث نفسه من جديد ويثق بإمكانياته الشخصية، ويتصرف ويتكلم بشجاعة يمليها عليه ضميره، وألا يخاف من المواجهة، فما قيمة الحياة أن خلت من المواجهة؟! ويستشهد المؤلف بأمثلة لأشخاص عاشوا شطراً كبيراً من حياتهم مسحوقين مهانين، ثم انتفضوا بعد أن رفضوا حياة الذل مؤكدين ذواتهم، مستمتعين بكرامتهم سعداء بولادتهم الجديدة.

يا للنبض الحار الذي تركه هذا الكتاب في عروق وجيه؟ أحس أنه يخلع جلده القديم منتشياً بجلده الجديد المعافى، والذي لم يمتص كلمات الذل، عاهد نفسه وهو يضع الكتاب على صدره مصالباً يديه فوقه أن لن يسمح لمخلوق بإهانته، وبأنه سيسعى لتأكيد ذاته متبعاً النصائح التي قدمها المؤلف.

المواجهة الأولى كانت مع زوجته التي اعتادت أن تسخر منه، وكان يمتص سخريتها على مضض دافناً انزعاجه منها، ومبرراً لها بأنه أسلوبها في الكلام، قالت له:ما هذه العجينة! أنت تقرأ كتاباً

في علم النفس وتحرم نفسك من قيلولتك المقدسة! قال بحزم: اسمعي، أسلوبك الساخر هذا يزعجني هل فهمت؟

رفعت إليه عينين مندهشتين وقالت: منذ متى تزعجك سخريتي يا سيدي؟

احتد قائلاً: حتى سيدي هذه فيها سخرية، انتبهي لألفاظك من الآن فصاعداً، أسلوبك الساخر فيه انتقاص من احترامك للآخر.

استمرت زوجته في السخرية قائلة: يا سلام، أهي موعظة أخلاقية أم...؟

قاطعها شاعراً بمشاعر غبطة عارمة لأنه يحكي ما يحسه ويفكر به تماماً:

- كفى.

- لا تعملي من الحبة قبة، كلامي واضح.

أخرستها المفاجأة، أهذا وجيه الذي كان يمتص كلامها معلقاً بابتسامة، ما الذي جرى له؟ هل أثر به الكتاب؟ لكن منذ متى يقرأ كتباً في علم النفس؟

امتصت غضبها، واعتبرت أن ما اعتراه ليس سوى حالة عابرة سببها حرمانه من القيلولة، لكنها حين ذكرته بعد ساعة بالسهرة في بيت أخيها، فوجئت برفضه الصريح قائلاً بوضوح سمّرها في مكانها: لن أسهر، يجب أن أعترف لك أنني كنت ألتقي بأخيك مجاملة لك، لكني من الآن فصاعداً لن أجامل، سأكون صادقاً مع نفسي، هل فهمت؟

بحلقت فيه غير مصدقة النفس الجديد في كلامه، سألته: خير، هل أزعجك بشيء؟

قال: إطلاقاً، لكني بصراحة لا أحترم رجلاً مثله.

قهقه مستمعاً بفيض تدفق أفكاره التي تولد في ذهنه وتنطلق رأساً إلى لسانه دون أن يلجمها كعادته، لا تندهشي يا زوجتي العزيزة، شخص مثل أخيك لم يحصل على الشهادة الإعدادية يصير مليونيراً! لا تقولي أن الله أعطاه، فهذه الجملة يختبئ خلفها اللصوص كلهم.

انفجرت قائلة: أتقصد أن أخي لصاً!

ضحك بصوتٍ حرٍ: لا أقول سوى الحق.

قالت: لا أصدق ما أسمع، منذ متى تتكلم هكذا؟ ما الذي جرى لك؟

قال منتشياً: لا شيء، أنا أؤكد ذاتي.

- ماذا؟ ما هذا الكلام غير المفهوم.

استمر بالضحك منتشياً، مكتشفاً متعة أن يعبّر الإنسان عن ذاته، لكنه لم يستطع أن يغفو طوال الليل، شاعراً أنه يحس بالجحيم والنعيم معاً مجتمعين في روحه، ياه كم ارتكب أخطاء بحق نفسه، بدت له حياته منذ طفولته وحتى خريف عمره سلسلة من الأخطاء يسودها الخوف ويبطنها القمع، منذ طفولته حُرِم من التعبير عن آرائه ومشاعره بصدقٍ وحريةٍ، كان يخاف من أبيه المستبد، وتعود مع الزمن ابتلاع الكلمات التي تعبر عن عفويته ابتلاع الإهانات أيضاً.

ياه ماذا فعل لقلبه سوى أنه حوله لحقل من الذل واليأس والكراهية للحياة! إنه الآن يواجه نفسه في صمت هذا الليل وحيداً مع دقات قلبه الذي يعلن الثورة بنبضٍ جديد يميزه وحده، وجد نفسه

بعين خياله مهزوماً ومهمشاً، قرر أن يتجاوز الخوف، امتصت وسادته دموعه وهو يعي كم تأخر في إعلان ثورة الكرامة في حياته.

صباح اليوم التالي حين استدعاه المدير، مشى إليه منتصباً شاعراً أنه يملك كنزاً في قرارة نفسه، لعله إحساسه بالكرامة أو القوة، وحين قرع الباب وثنى مقبضه ليدخل أحس أنه يودّع آخر شعور بالذل، كان سعيداً أنه مقدم على معركة سيؤكد فيها ذاته، أخذ نفساً عميقاً وهو يشعر أن مؤلف الكتاب "تأكيد الذات" يشد على يده مشجعاً وهامساً له: ما قيمة حياة تخلو من المواجهة؟!

تذكّر أنه في كل مرة كان يحيي المدير بلهجة الطاعة، وبابتسامة فيها الكثير من المذلة والآخر لا يرد التحية، رفع إليه المدير عينين حاقدتين ومستطلعتين في آنٍ، كأنه يسأله:

- أين تحية الصباح؟

أسعده أنه استقبل نظرة المدير بتحدٍ ولامبالاة، وضع يديه في جيبي بنطاله، وأثنى ركبته، لم يعد من مبرر لوقفة المعاقب على ذنوب لم يرتكبها، تذكر أنه كان يقف محني القامة وقد تصالبت يداه خلف ظهره ونظره مسمر على حذائه. ابتدره المدير ساخراً: أرى أنك ابتلعت تحية الصباح، هل اختفى صوتك؟

قال بصوتٍ لم يتعمَّد أن يبلله بالذل: أبداً، لكني في كل مرة كنت أحييك، لا أسمع ردك.

بحلق فيه الشاب المتغطرس قائلاً: أتجرؤ على انتقادي؟

قال: بل أجيب على سؤالك.

قلّب المدير الملف وقال: أرى أنك لم تجرِ التعديلات التي أمرتك بها.

خفق قلبه وهو يعي أنه مقدم على ساحة القتال بشجاعة لم يعرف مثلها طول حياته: ما أمرتني به يخالف للقانون.

هبّ المدير واقفاً وقال: ماذا أسمع!

أجابه باستخفاف: أنا لا أخالف القانون، المواصفات التي كتبتها غير متوافرة في المواد التي يجب أن أوافق على شرائها، ستخسر الشركة ملايين إذا...

جنّ المدير من الغضب، قاطعه قائلاً: اخرس يا كلب، أتجرؤ على مخالفة أوامري، ستوقع يعني ستوقع.

كان منتشياً بتأكيد ذاته، ترك المدير يعوي مسعوراً، يشتمه ويتوعد وحين تهاوى على كرسيه، قاذفاً الملف بوجهه وهو يأمره أن يوقع وإلا سيندم.

قال له بصوتٍ واثقٍ: لا أرد على رجل سفيهٍ مثلك، لن أوقع، هل فهمت؟ استدار ليمضي، لكن المدير انقض على كتفيه يهدده. وجد نفسه يستدير ويقبض على عنق المدير بقبضةٍ من حديد، طعنه بعينيه اللتين تقدحان شرراً وقال له: كفاك تطاولاً على الناس، الكل هنا يكرهك، ويعرفون ممارساتك الدنيئة، لا أحد تخفى عنه سرقاتك، فلا تتطاول على الشرفاء.

لم يستطع المدير تحرير عنقه من القبضة الحديدية، إلا حين أراد وجيه إفلاته.

عاد على مكتبه منتشياً بسعادة تحقيق الذات، ووسط عيون الدهشة والذهول والخوف لزملائه، كان وحده يتذوق طعم سعادة جديدة عليه.

وحين استدعي للتحقيق بعد أيام، ذهب بقلبٍ واثقٍ، أدلى

www.mlazna.com-رياح الشرق

بأقواله وسلم المستندات التي تدين المدير وتفضح سرقاته، لم ينكر أنه اضطر للدفاع عن نفسه، كان متشبثاً بولادته الجديدة، قلبه ينبض على إيقاع الكرامة، وجلده تفتحت مسامه التي انسدت لزمن طويل بعرق الخوف. لكنه فوجئ بعد شهرين من مسار التحقيق بفصله من الوظيفة بتهمة اعتدائه على عنق المدير!

تراقص عنوان الكتاب في ذهنه، سأل الموظف بعينين دامعتين: لم تقل لنا مخاطر تأكيد الذات يا صديقي؟ أدهشته أن تكون آثار تحقيق الذات رهيبة إلى هذا الحد ومدمرة، ورغم إحساسه أن الواقع هزمه وأنه متكور داخل حزنه كحلزون منكمش في قوقعته، ورغم أن إحساسه بالغبن كان طاغياً، إلا أن ثمة شعوراً ابتدأ باهتاً في روحه، ثم أخذ يعربد معلناً عن نفسه مؤكداً له أنه حقق أعظم انتصارات حياته، وأنه توصل إلى تجاوز ذاته ليصير مثلاً ورمزاً للشجاعة.

كان يحسّ بمتعة أنه ترك بصمته في ذاكرة أصدقائه وأعدائه إلى الأبد.. لن يتمكن أي منهم من نسيانه. فليكن كبش الفداء لا يهم، يكفي أنه لم يسمح للظروف الرديئة أن تجمده وتختزل إنسانيته، وما فداحة الظلم الذي أصابه سوى تأكيد على نزاهته وصدقه، لقد فهم متأخراً لماذا كان يكره كتب الفلسفة، لأنها ستضطره أن يفهم ذاته ويناقش حياته، وهو لم يكن مستعداً لمواجهة نفسه.

ياه كم يشعر أن البطولة أرفع من أية سعادة، لم يعد يخشى شيئاً، شجاعة تأكيد الذات أعطته مناعة ضد التهديدات، فليخسر وظيفته، المهم ألا يخسر نفسه.

وفي وحشة الليل كان قلبه أعزل لكنه ليس خائفاً، لم يعد مضطراً لتضليل ذاته، إنه يقفز فوق الصعاب وحيداً وحراً يلحقه

ظل كرامته، ورغم أن جسده كان ثقيلاً، إلا أن روحه كانت تسبح في أمواج النور. أدخله التعب أو النعاس في ما يشبه الغيبوبة، سمع همساً بعيداً يقول له مؤاسياً: لا تيأس، المهم تأكيد الذات.

تسويق خاص

الثالثة بعد الظهر، إنه الوقت المثالي لتسوقها، ارتدت فستانها الخاص بالتسويق والذي يظهر خطوط جسدها بدقة، والمؤلف من قطعتين، قميص علوي من قماش مطاطي أصغر بنمرتين من قياسها ليظهر تكور نهديها المتمردين، وتنورة ضيقة مفتوحة بصف الأزرار الأصغر من عروتها لتسهل عملية تسوقها الخاص.

رشت العطر بكثافة على عنقها، وأعادت طلي شفتيها بمزيد من الأحمر، لم تستطع أن تغفل نظرة الحزن المطلة من عينيها حين رمقت نفسها لآخر مرة في المرآة.

قصدت بائع الجوارب أولاً، كان نصف صاح، مسترخياً في كرسيه يصغي بشرود لنشرة الأخبار، أحكمت قناع الإغواء على وجهها، سلمت عليه بصوت شحذته بطاقتها على الفتنة كلها، وقفت في الزاوية التي يستطيع أن يراها على أفضل وجه، دبّ فيه النشاط وانتفض من كرسيه وهو يرحب بها: أهلاً، أهلاً.

قالت بدلالٍ: آسفة قطعت عليك قيلولتك.

تعمدت أن تسقط حقيبة يدها على الأرض، كي تكشف وهي تنحني لالتقاطها عن نهدين متمردين، أشبه بقبتي فضة أمكنها أن تسمع كيف ابتلع لعابه الذي سال شهوة، حبس نفساً عميقاً وهو يقول: أنا تحت أمرك.

رشقته بنظرة صعقته لكثرة ما شحذت فيها الفتنة، قالت: أريد جوارب سوداء ودخانية، ومن لون الجسم.

أنزل بمهارة عدة علب من الرفوف التي تصل حتى السقف، نزع أغطيتها وقال: اختاري.

كانت جوارب ممتازة يعادل سعر الواحد منها الدخل اليومي لموظف محترم، اختارت ثلاثة من كل لون، ابتسمت بسخاء وهي ترمقه بنظراتها اللماعة: كم ثمنها؟

امتدت يده إلى ساقها بحذر، وهو يتأمل وجهها، أمرت عينيها أن يزداد تألقهما وفمها أن يبتسم بإغواء أكبر، ارتفعت يده حتى ركبتيها تتحسسها قبل أن تصل للفخذين البديعين قال وهو يلهث أنت رائعة.

كررت بدلع: لم تقل لي كم ثمن الجوارب؟

قال: ثمنها الرضا، ارضي عني، هذا ما أبتغيه.

هاجت مشاعره، فانتفضت مبتعدة وهي تذكره أنهما في الدكان.

قال مهتاجاً: سأغلق الباب لنصف ساعة ما رأيك؟ نظرت في ساعتها قائلة: ليس اليوم، أرجوك فأنا مستعجلة.

توسل بنظرته ثم قال برجاء أرجوك.

قالت وهي تتظاهر بالقلق والاستعجال وتبالغ بالتطلع حولها: ليس الآن، ليس الآن.

نقلت إليه إحساسها بالخوف والاضطراب فيما كانت تستعجل الذهاب إلى البائع وعدته أن تمر بعد أيام، وأسرعت تحمل كيس الجوارب مستأنفة مسيرة تسوقها، ولجت محلاً للألبسة الجاهزة،

سلمت على الرجل الخمسيني الذي يدخن الأركيلة ويتابع مسلسلاً مجته لكثرة ما عرضته الفضائيات. حيته بالإغواء الذي تمرست عليه، هب لاستقبالها وهو يقول: طالت غيبتك.

قلبت نظرها في الدكان، كانت الثياب الشتوية معروضة بطريقة لافتة، رشقته بنظرة عتب وهي تقول: أنت لا تسأل عني.

قال وهو يمد يده متحسساً مؤخرتها المكورة: أنت في البال دوماً، لكنك لا تحنين علي.

قالت: أنا! لا تظلمني لن تجد امرأة أحن عليك مني.

كان يتحسس جسدها فيما هي تتأمل الثياب، سألته: هل الرمادي موضة الشتاء هذا العام!

قال: أجل الرمادي والأحمر، المحل كله تحت أمرك.

اختارت طقمين ودخلت غرفة القياس الضيقة بدت رائعة في الثياب الجديدة، كانت تسمع صوت أنفاسه تلفح باب غرفة القياس، كم تشمئز منه، رائحة فمه لا تطاق، تحرك فيها الغثيان الشديد، سأل أيمكنني أن أراك بالثياب الجديدة.

فتحت الباب، شعرت كيف أشبع الهواء للحال برائحة أنفاسه الزنخة، سحقت روحها وهي تتلقى عضاته وقبلاته النهمة التي بللت عنقها بلعابه المقرف. لم تستطع مقاومة اندلاع موجة غثيان في جوفها واصلة فمها، قالت له وهي تبعده عنها: أوف المكان ضيق جداً هنا أكاد أختنق.

أنقذها دخول شخص يناديه بصوتٍ عالٍ، كان لغرفة القياس باب خفي يتصل بالمطبخ، بدا البائع وكأنه خارج من المطبخ وفي يده زجاجة مياه معدنية. تقيأت عصارة صفراء في كومة مناديل

www.mlazna.com-رياح الشرق

ورقية، كان طعم لعابه الزنخ في فمها بحثت في حقيبة يدها عن علكة فلم تجد سوى قطعة راحة التهمتها بشراهة، ولم يفلح السكر المكثف بتبديد قرفها. قررت أن تشتري فرشاة أسنان حال خروجها من الدكان. أسرعت تلبس ثيابها وتخرج من غرفة القياس بعد أن أحكمت رسم قناع الانشراح على وجهها، من حسن حظها أن البائع تورط باستقبال قريبه، حدثها بجدية وهو يقول: هل المقاس مناسب؟

قالت: "أجل، لكني مترددة أيهما أختار.

قال: خذي الاثنين واختاري في البيت.

شكرته، وخرجت تتنفس الصعداء وبهمة قصدت الدكان الثالث الأكثر أهمية، محل أدوات كهرباء من طابقين، صعدت الطابق العلوي لتلتقي صاحب الدكان الذي كان يتفرج على فيلم بورنو، في كل مرة تزوره يعطيها وصلاً أنها دفعت ألفي ليرة من قسط الغسالة الأوتوماتيك. أجرت عملية حسابية سريعة بذهنها: عليها أن تضاجعه ثلاث مرات حتى تنتهي من أقساط الغسالة.

طلب إليها أن تتعرى وتمشي أمامه، رمقته لتتبين مدى جديته صفعتها برودة نظرته، عليها أن تلبي حالاً وإلا ستخشى من إصراره على الدفع. تعرت وتمشت أمامه، كان يوزع نظره بينها وبين الفيلم، أحست ببرد الخريف ينخر عظامها، انكمشت حلمتا ثديها، غطتهما بيديها، طلب إليها أن تبعد يديها عن نهديها، أطاعت.

ودت لو تصرخ به: هيا اقبض قسط الغسالة وأرحني.

استمتع بعريها وهي تمشي أمامه ربع ساعة، ثم انقض عليها كالوحش، كان يحب أن يمثل كل مرة أنه يغتصبها، لكنه كان يغتصبها حقاً هذه المرة، تركها بعد افتراسه لها تلملم أشلاءها

المبعثرة، أعطاها وصلاً أنها دفعت ألفي ليرة قسط الغسالة. تمنت لو تملك الجرأة وتقول: أحس أنني دفعت وصلين هذه المرة، وليس وصلاً واحداً.

دارت بها الدنيا كادت تسقط مغشياً عليها طلبت ماء، فقال لها: لا يوجد ماء مدّ لها زجاجة البيرة فجرعت جرعة كبيرة وقبل أن تنزل الدرج الضيق هبت في روحها شجاعة متهورة التفتت إليه قائلة: أتعرف يفترض بك أن تعطيني وصلين هذه المرة والله كدت أموت و...

قاطعها: تعالي، أريد أن أقول لك شيئاً.

خافت أن ينقض عليها ثانية لكنها اقتربت منه مرغمةً، قال لها: اركعي إلى جانبي ركعت إلى جانبه وهو ممدد على الأريكة قال: يمكنني أن أعطيك وصلاً أنك دفعت ثمن الغسالة كله إذا رضيت أن...

همس بأذنها بكلمات جعلتها تنتفض واقفةً وهي تشعر كيف تتدفق الدماء بغزارة إلى وجهها، تعثرت وهي تنزل الدرج الضيق، خرجت من المحل وهي تلهث من الإعياء والضياع والدوار تلعن الزمن بغليان روحها كله في تلك اللحظة وحين همّت بقطع الشارع لمحت زميلة طفولتها تقود سيارة مرسيدس تذكرت كم كانت تفوقها ذكاء واجتهاداً وجمالاً وأن تلك البلهاء اشترت شهادة جامعية ووظيفة وزوجاً وسيارة بقوة مال والدها، أما هي فتعهرت رغماً عنها بسبب فقر والدها، ثم فقر زوجها الذي قصف عمره لأنهم لا يملكون المال لعلاج تعطل كليته فمن لا يملك سوى رغيف الخبز كيف سيشتري كلية! بصقت على زمن العهر، ارتسمت صورتها على رصيف الشارع قذرة وقد احتفر وجهها بحفر صغيرة، يجب

أن يأكل الأطفال ويتعلموا ويلبسوا يا زمن العهر وحدها تعرف أنها عاهرة اضطرارية زمن ابن كلب حشرها في زاوية وقال لها شامتاً: تصرفي كيف ستطعمين أولادك؟ أمامك ثلاثة ملائكة أبرياء من فقرهم وحدها تعرف كم قاومت وكم حاولت التحايل على الفقر وكم حققت أرقاماً بطولية في الصبر لكن حين كاد صغيرها ذو الأعوام الخمسة يموت من نوبة الربو وهي لا تملك ثمن البخاخ الشافي يومها حملته إلى المستشفى وركضت في الشارع وليس في جيبها أجرة سيارة تكسي، طلبت من السائق أن يرحمها وينقلها إلى المشفى الحكومي دون أن يقبض وهناك طلبوا إليها أن تشتري الدواء لابنها لأن الدواء غير متوافر في المشفى.

تركت الصغير المزرق بين أيدي الأطباء لتحضر له الدواء يومها ركضت ودموعها تتساقط أمامها وقد اتخذت قرار حياتها ستبيع لحمها لتطعم الصغار وتؤمن لهم حياة معقولة ما قيمة جسدها إن لم يذب من أجل صغارها؟ لا يهم كيف سيذوب فليعلكه الرجال. ياه العهر مفهوم واسع، واسع هي وحدها تجيد التحدث عنه بل تفكر أن تكتب محاضرة عن "التعهر العام"، ستضع لها عنواناً أكثر إثارة هي التي اشترت أثناء دراستها بجمال أسلوبها لكن البحث المضني عن وظيفة تؤمن الرمق اليومي لأولادها كان مستحيلاً، الحياة غول يفغر فاه ليبتلع صغارها وهي ستقيهم الجوع اعتقدت أنها نجحت في التحول لعاهر لكن شغفها بالشعر تقرؤه بصوتٍ عالٍ مشحون بالشحن وهي تبكي يفضحها ما تفسير هذه الظاهرة؟ فلنترك لأطباء النفس أمر تفسيرها...

توقفت أمام واجهة عريضة لدكان يعرض دمى اشترت دمية تمشط لها شعرها تخيلت فرحتها ستقبلها وهي تقول: أنت أروع

ماما في الدنيا. بللها الإثم وهي تتخيل أن سناء ستعرف ذات يوم أن الماما عاهرة...

في مشوار تسوقها الأخير اشترت ربطة خبز فكرت ضاحكة بأن الخبز هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن تشتريه دون أن تبيع جسدها. لكنها حين همّت بالولوج إلى الزقاق الذي يؤدي إلى بيتها أتاها تساؤل مفعم بالشك هل أنت متأكدة أنك تستطيعي الحصول على رغيف الخبز دون أن تبيعي جسدك؟

كان صغارها يجلسون على سجادة اهترأت حتى اختفت أوبارها وتحولت لبساط أسرعوا يفتشون عن الحلوى في حقيبتها أبعدتهم عنها برفق كانت تشعر أنها تدنسهم اتجهت إلى الحمام لتدعك جسدها بالليفة والصابون وتغسله بماء تقارب حرارته درجة الغليان التبست دموعها بالماء أكانت تبكي؟! ربما كم من الأشياء تستحق أن نبكي عليها عقصت شعرها ولبست قميص نومها الفضفاض جلست وسط أولادها تتأملهم كيف يأكلون بشهية الجبنة المثلثة التي طالما تحلب ريقهم وهم يتابعون دعايتها في التلفاز كانوا سعداء وهم ينظرون إلى وجهها نظرة تترجمها أنت الماما الحبيبة التي لولاك نموت. احتضنتهم وهي تغمض عينيها المحترقتين بالدموع وتتنهد مخاطبة روحها: كل دنسي يذوب في الماء الساخن.

www.mlazna.com-رياح الشرق